مصطفى محمود

الإسلام ..
مــاهو..؟

الدين ... ما هو ؟؟

الدين ليس حرفة ولا يصلح لأن يكون حرفة .

ولا توجد فى الإسلام وظيفة اسمها رجل دين .

ومجموعة الشعائر والمناسك التى يؤديها المسلم يمكن أن تؤدى فى روتينية مكررة فاترة خالية من الشعور ، فلا تكون من الدين فى شىء .

وليس عندنا زى اسمه زى إسلامى .. والجلباب والسروال والشمروخ واللحية أعراف وعادات يشترك فيها المسلم والبوذى والمجوسى والدرزى .. ومطربو الديسكو والهيبى لحاهم أطول .. وأن يكون اسمك محمدًا أو عليًّا أو عثمان ، لا يكفى لتكون مسلماً .

وديانتك على البطاقة هى الأخرى مجرد كلمة .

والسبحة والتمتمة والحمحمة ، وسمت الدراويش وتهليلة

المشايخ أحيانًا يباشرها الممثلون بإجادة أكثر من أصحابها .

والرايات واللافتات والمجامر والمباخر والجماعات الدينية أحيانًا يختفى وراءها التآمر والمكر السياسى والفتن والثورات التى لا تمت إلى الدين بسبب .

ما الدين إذن ... ؟!

الدين حالة قلبية .. شعور .. إحساس باطنى بالغيب .. وإدراك مبهم ، لكن مع إبهامه شديد الوضوح بأن هناك قوة خفية حكيمة مهيمنة عُليا تدبر كل شىء .

إحساس تام قاهر بأن هناك ذاتًا عُليا .. وأن المملكة لها ملك .. وأنه لا مهرب لظالم ولا إفلات لمجرم .. وأنك حر مسئول لم تولد عبثًا ولا تحيا سدى وأن موتك ليس نهايتك .. وإنما سيعبر بك إلى حيث لا تعلم .. إلى غيب من حيث جئت من غيب .. والوجود مستمر .

وهذا الإحساس يورث الرهبة والتقوى والورع ، ويدفع إلى مراجعة النفس ويحفز صاحبه لأن يبدع من حياته شيئًا ذا قيمة ويصوغ من نفسه وجودًا أرقى وأرقى كل لحظة متحسبًا لليوم الذى يلاقى فيه ذلك الملك العظيم .. مالك الملك .

هذه الأزمة الوجودية المتجددة والمعاناة الخلاقة المبدعة والشعور المتصل بالحضور أبدًا منذ قبل الميلاد إلى ما بعد الموت .. والإحساس بالمسئولية والشعور بالحكمة والجمال والنظام والجدية فى كل شىء .. هو حقيقة الدين .

إنما تأتى العبادات والطاعات بعد ذلك شواهد على هذه الحالة القلبية .. لكن الحالة القلبية هى الأصل .. وهى عين الدين وكنهه وجوهره .

وينزل القرآن للتعريف بهذا الملك العظيم .. ملك الملوك .. وبأسمائه الحسنى وصفاته وأفعاله وآياته ووحدانيته .

ويأتى محمد عليه الصلاة والسلام ليعطى المثال والقدوة .

وذلك لتوثيق الأمر وتمام الكلمة .

ولكن يظل الإحساس بالغيب هو روح العبادة وجوهر الأحكام والشرائع ، وبدونه لا تعنى الصلاة ولا تعنى الزكاة شيئاً .

ولقد أعطى محمد عليه الصلاة والسلام القدوة والمثال للمسلم الكامل ، كما أعطى المثال للحكم الإسلامى والمجتمع الإسلامى .. لكن محمدًا عليه الصلاة والسلام وصحبه كانوا مسلمين فى مجتمع قريش الكافر .. فبيئة الكفر . ومناخ الكفر لم يمنع أيًا منهم من أن يكون مسلماً تام الإسلام .

وعلى المؤمن أن يدعو إلى الإيمان ، ولكن لا يضره ألا يستمع أحد ، ولا يضره أن يكفر من حوله . فهو يستطيع أن يكون مؤمنًا فى أى نظام وفى أى بيئة .. لأن الإيمان حالة قلبية ، والدين شعور وليس مظاهرة . والمبصر يستطيع أن يباشر الإبصار ولو

كان كل الموجودين عمياناً ، فالإبصار ملكة لا تتأثر بعمى الموجودين ، كما أن الإحساس بالغيب ملكة لا تتأثر بغفلة الغافلين ولو كثروا بل سوف تكون كثرتهم زيادة فى ميزانها يوم الحساب .

إن العمدة فى مسألة الدين والتدين هى الحالة القلبية .

ماذا يشغل القلب .. وماذا يجول بالخاطر ؟

وبم تتعلق الهمة ؟

وما الحب الغالب على المشاعر ؟

ولأى شىء الأفضلية القصوى ؟

وماذا يختار القلب فى اللحظة الحاسمة ؟

وإلى أى كفة يميل الهوى ؟

تلك هى المؤشرات التى سوف تدل على الدين من عدمه .. وهى أكثر دلالة من الصلاة الشكلية ، ولهذا قال القرآن .. ولذكر الله أكبر .. أى أن الذكر أكبر من الصلاة .. برغم أهمية الصلاة .

ولذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام لصحابته عن أبى بكر .. إنه لا يفضلكم بصوم أو بصلاة ولكن بشىء وقر فى قلبه .

وبهذا الشىء الذى وقر فى قلب كل منا سوف نتفاضل يوم القيامة بأكثر مما نتفاضل بصلاة أو صيام .

إنما تكون الصلاة صلاة بسبب هذا الشىء الذى فى القلب .

وإنما تكتسب الصلاة أهميتها القصوى فى قدرتها على تصفيه القلب وجمع الهمة وتحشيد الفكر وتركيز المشاعر .

وكثرة الصلاة تفتح هذه العين الداخلية وتوسع هذا النهر الباطنى ، وهى الجمعية الوجودية مع الله التى تعبر عن الدين بأكثر مما يعبر أى فعل .

وهى رسم الإسلام الذى يرسمه الجسم على الأرض ، سجوداً ، وركوعاً وخشوعاً وابتهالا ، وفناء .. يقول رب العالمين لنبيه :

﴿ اسجد واقترب ﴾ .

وبسجود القلب يتجسد المعنى الباطنى العميق للدين ، وتنعقد الصلة بأوثق ما تكون بين العبد والرب .

وبالحس الدينى ، يشهد القلب الفعل الإلهى فى كل شىء .. فى المطر والجفاف ، فى الهزيمة والنصر ، فى الصحة والمرض ، فى الفقر والغنى ، فى الفرج والضيق .. وعلى اتساع التاريخ يرى الله فى تقلب الأحداث وتداول المقادير .

وعلى اتساع الكون يرى الله فى النظام والتناسق والجمال ، كما يراه فى الكوارث التى تنفجر فيها النجوم وتتلاشى فى الفضاء البعيد .

وفى خصوصية النفس يراه فيما يتعاقب على النفس من بسط

وقبض ، وأمل وحلم ، وفيما يلقى فى القلب من خواطر وواردات .. حتى لتكاد تتحول حياة العابد إلى حوار هامس بينه وبين ربه طول الوقت ..

حوار بدون كلمات ..

لأن كل حدث يجرى حوله هو كلمة إلهية وعبارة ربانية ، وكل خبر مشيئة ، وكل جديد هو سابقة فى علم الله القديم .

وهذا الفهم للمشيئة لا يرى فيه المسلم تعطيلا لحريته ، بل يرى فيه امتدادًا لهذه الحرية .. فقد أصبح يختار بربه ، ويريد بربه ، ويخطط بربه ، وينفذ بربه .. فالله هو الوكيل فى كل أعماله .

بل هو يمشى به ، ويتنفس به ، ويسمع به ، ويبصر به ، ويحيا به . وتلك قوة هائلة ومدد لا ينفد للعابد العارف ، كادت أن تكون يده يد الله وبصره بصره ، وسمعه سمعه ، وإرادته إرادته .

إن نهر الوجود الباطنى داخله قد اتسع للإطلاق .. وفى ذلك يقول الله فى حديثه القدسى :

« لم تسعنى سماواتى ولا أرضى ووسعنى قلب عبدى المؤمن » .

هذا التصعيد الوجودى ، والعروج النفسى المستمر هو المعنى الحقيقى للدين .. وتلك هى الهجرة إلى الله كدحًا .

﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه ﴾ .

ولا نجد غير الكدح كلمة تعبر عن هذه المعاناة الوجودية الخلاقة ، والجهاد النفسى صعدا إلى الله .

هذا هو الدين .. وهو أكبر بكثير من أن يكون حرفة أو وظيفة أو بطاقة أو مؤسسة أو زيا رسميا .

الصلاة

آخر صيحة فى أمريكا الآن موضة جديدة اسمها (Transendental Meditation) وترجمتها الحرفية هى الاستغراق التأملى المتجرد .. وهى موضة وافدة من الهند وبدعة من بدع اليوجا .. وقد لاقت نجاحًا مكتسحًا فى المجتمع الأمريكى شأنها شأن كل البدع الجديدة ، ووضعت فيها الكتب والمؤلفات ، وأقيمت المؤتمرات وأصبح لها أتباع بالملايين .. وأصبح لها رسل ودعاة ومبشرون ينطلقون إلى القارات الأربع ومعهم الكتب والنشرات للدعوة للمذهب .. وقد التقيت بأحد هؤلاء المبشرين فى نادى الجزيرة يحاول أن يدعو لمذهبه .

والمذهب فى اختصار شديد يدعو كل منا إلى أن يخصص بضع دقائق من يومه يطرح فيها عن نفسه كل الشواغل ، ويلقى عن باله كل الهموم ويستلقى فى استرخاء كامل على كرسى وقد

أغمض عينيه وتجرد عن كل شىء حتى عن نفسه يلقيها هى الأخرى وراء ظهره ، ويخرج من جلده إلى حالة من الخلوص والمحو واللاشىء .. إلى راحة العدم ..

ويختار المبشر لكل واحد من أتباعه تسبيحة يرددها .. هى فى العادة كلمات سنسكريتية لا تعنى بالنسبة للمريد أى شىء .. وسوف تعاون هذه التسبيحة المريد على أن يخرج من نفسه أكثر ، ويتجرد من عالمه ويخرج من حضرة الهم والغم والتوتر إلى حضرة أخرى مجردة تكون فيها راحته وخلاصه .

إنها دعوة إلى نوع من السكتة العقلية التى تأخذ فيها النفس راحة وإجازة من معاناتها .. ورأيت مع المبشر كتبًا ومنشورات وبحوثًا علمية وإحصائيات تؤكد شفاء الكثيرين من ضغط الدم والذبحة واضطراب الهرمونات والصداع المزمن بعد مباشرة هذه الجلسات لمدة شهور .

وفى أحد هذه البحوث كان الطبيب يتابع ضغط دم المريض فى أثناء جلسة الاسترخاء فتسجل الأجهزة انخفاض الضغط انخفاضاً ملحوظًا مع هبوط فى تسارع النبض مع تغير فى أخلاط الدم الكيمائية فى اتجاه المزيد من التوازن .

وفى جلسة طويلة مع المبشر قال لى أنه ألقى عدة محاضرات فى

النادى مع تمارين توضيحية تشرح مذهبه .. ولكنه اشتكى من عدم التجاوب بين المستمعين وأنه لم يلاق الصدى والنجاح الذى توقعه .

وقلت له إن هذا أمر طبيعى ومتوقع .. فما تقوله وما تبشر به ليس أمرًا جديدًا على أسماعنا .. بل إننا نباشر هذه التمارين بالفعل كمسلمين خمس مرات فى اليوم .. فهى جزء من صلاتنا الإسلامية التى أمرنا بها نبينا عليه الصلاة والسلام ..

فالصلاة عندنا تبدأ بهذا الشرط النفسى .. أن يتجرد المصلى تمامًا عن شواغله وهمومه ، وأن يطرح وراءه كل شىء ، وأن يخرج من نفسه وما فيها من أطماع وشهوات وخواطر وهواجس هاتفًا .. الله أكبر .. أى أكبر من كل هذا ويضع قدمه على السجادة فى خشوع واستسلام كامل وكأنما يخرج من الدنيا بأسرها ..

ولكن صلاتنا تمتاز على التمرين الذى تبشر به .. بأنها ليست خروجًا من دنيا التوتر والقلق إلى عالم المحو الكامل وراحة العدم .. بل هى خروج إلى الحضرة الإلهية .. إلى حضرة الغنى المطلق .. ونحن لا نستعين بتسابيح وطلاسم سنسكريتية لا معنى لها ، وإنما نسبح بأسماء الرحمن الرحيم مالك يوم الدين لنتمثل فى قلوبنا تلك الحضرة الإلهية الجمالية التى ليس كمثلها شىء .

وقلت له إن صلاتنا تعطى المؤمن كل الراحة والإجازة التى

تدعو إليها وزيادة .. فهى ليست مجرد سكتة عقلية ، بل صحوة قلبية وانفتاح وجدانى تتلقى فيه النفس شحنة جديدة من النور ونفحة من الرحمة ومددًا من التأييد الإلهى .

إنها لحظة خصبة شديدة الغنى ، تعيد صلة المؤمن بالنبع الخفى الذى يستمد منه وجوده .

إن الانفصال عن دنيا النقص والشر والتوتر يواكبه الاتصال بعالم الكمال ومن هنا كان أثر الصلاة على المصلى مضاعفًا .

وصلاتنا إذا صلاها المسلم بحضور كامل ، واستغراق وفناء واندماج ، فإنها تكون شفاء من كل الأمراض التى ذكرتها وأكثر .

وإذا أجريت البحوث والفحوص على ما يحدث فى أثناء الصلاة لضغط الدم والنبض ، وتسجيل المخ الكربانى ، وأخلاط الدم الكيمائية ، لكشفت عن نتائج أكثر إبهاراً مما ذكرت فى تمارينك .. ولكن للأسف لا أحد فى أمريكا أو أوربا يرى إسلامنا على حقيقته ولا أحد يحاول أن يبحث فيه .

ولهذا سوف تظل صلاتنا الإسلامية كنزًا مخفيًا لا يعلم ما فيه إلا من باشره بحضور كامل .. يقول لنا الله « أقيموا الصلاة » ولا يقول صلوا .. لأن الصلاة الحقيقية إقامة تشترك فيها جميع الأعضاء مع القلب والعقل والروح ..

وخطأ الأوربى أنه يظن أن الصلاة « الإسلامية » هى مجرد

حركات وأنها على الأكثر مجرد اغتسال ورياضة « بدنية » ، ولهذا يقف عند ظاهر الأمر - لا يتخطاه .. .

وينسى أن الحركات فى الصلاة مجرد رمز فهى وقوف إكبار لله مع كلمة الله أكبر ، ثم ركوع ثم فناء بالسجدة وملامسة الأرض خشوعًا وخضوعًا ، وبذلك تتم حالة الخلع والتجرد والسكتة « الكاملة » النفسية .. ولا يبقى إلا استشعار العظمة لله تسبيحًا .. سبحان ربى الأعلى وبحمده .. سبحان ربى الأعلى وبحمده ..

« وسبحان » معناها ليس كمثله شيء ، وهو اعتراف بالعجز الكامل عن التصور .. ومعناها عجز اللغة وعجز اللسان وعجز العقل عن وصف المحبوب .

وتلك ذروة « نفسية » فى النجوى :

وتلك هى وقفة الأدب حينما بلغ جبريل سدرة المنتهى فلم يستطع أن يتخطاها .. وقال لو تقدمت لا حترقت .

وليس بعد هذه الوقفة إلا التجليات والتنزلات للكاملين الذين يؤهلهم التجرد الكامل لاستشراف الأنوار .

فالصلاة هى المعراج الأصغر وهى نصيب المسلم من المعراج الأكبر الذى عرج فيه محمد عليه الصلاة والسلام إلى ربه .

وهى ليست مجرد حركات .. بل هى أسرار ورحمات .

وأشرفها وأرفعها صلاة الفجر التى تشهدها الملائكة .. وصلاة

قيام الليل .. التى نال صاحبها بها المقام المحمود .

والصلاة هى الرصيد المتاح من الرحمة لكل مسلم فى البنك الإلهى .. إن شاء أخذ منه وإن شاء ضل عنه وتكاسل فأضاع على نفسه كسبًا لا يقدر بمال ..

وما زالت الصلاة كنزًا مخفيًا لا نعلم عن أسرارها إلا أقل القليل ولا ينتهى فى الصلاة كلام .

الصيام

الصيام من الشعائر القديمة المشتركة فى جميع الأديان .

وهواة الجدل دائما يسألون .. كيف يخلق لنا الله فمًا وأسنانًا وبلعومًا ومعدة لنأكل ثم يقول لنا صوموا .. كيف يخلق لنا الجمال والشهوة ثم يقول لنا غضوا أبصاركم وتعففوا .. هل هذا معقول ..

وأنا أقول لهم بل هو المعقول الوحيد .. فالله يعطيك الحصان لتركبه لا ليركبك .. لتقوده وتخضعه لا ليقودك هو ويخضعك ..

وجسمك هو حصانك المخلوق لك لتركبه وتحكمه وتقوده وتلجمه وتستخدمه لغرضك ، وليس العكس أن يستخدمك هو لغرضه وأن يقودك هو لشهواته .

ومن هنا كان التحكم فى الشهوة وقيادة الهوى ولجام المعدة هى علامة الإنسان .. أنت إنسان فقط فى اللحظة التى تقاوم فيها

ما تحب وتتحمل ما تكره .. أما إذا كان كل همك هو الانقياد لجوعك وشهواتك فأنت حيوان تحركك حزمة برسيم وتردعك عصا .. وما لهذا خلقنا الله .

الله خلق لنا الشهوة لنتسلق عليها مستشرفين إلى شهوة أرفع .. نتحكم فى الهياج الحيوانى لشهوة الجسد ونصعد عليها لنكتفى بتلذذ العين بالجمال ، ثم نعود فنتسلق على هذه الشهوة الثانية لنتلذذ بشهوة العقل إلى الثقافة والعلم والحكمة ثم نعود فنتسلق إلى معراج أكبر لنستشرف الحقيقة ونسعى إليها ونموت فى سبيلها .

معارج من الأشواق أدناها الشوق إلى الجسد الطينى وأرفعها الشوق إلى الحقيقة والمثال .. وفى الذروة .. أعلى الأشواق لرب الكمالات جميعها . الحق سبحانه وتعالى ..

يقول الله فى حديثه القدسى :

« يابن آدم خلقتك لى وخلقت الأشياء لك فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له » .

ولهذا سخر الله لنا الطبيعة بقوانينها وثرواتها وكنوزها ، وجعلها بفطرتها تطاوعنا وتخدمنا فنحن لم نبذل مجهودًا كبيرًا لنجعل الجمل يحمل أثقالنا ، أو الكلب يحرس ديارنا ، أو الأنعام تنفعنا بفرائها ولحومها وجلودها .. وإنما هكذا خلقت مسخرة طائعة .. وإنما العمل الذى خلقنا الله من أجله والتكليف الذى

كلفنا به هو أن نركب هذه الدواب مهاجرين إلى الهدف .. إلى الله .. إليه وحده في كماله ..

﴿ يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه ﴾

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

والعبادة لا تكون إلا عن معرفة .

فالحياة رحلة تعرُّف على الله وسوف يؤدى بنا التعرف على الله وكمالاته إلى عبادته .. هكذا بالفطرة ودون مجهود ، وهل نحتاج إلى مجهود لنعبد الجميلة حبًّا ..

إنما تتكفل بذلك الفطرة التى تجعلنا نذوب لحظة التطلع إلى وجهها ، فما بالنا لحظة التعرف على جامع الكمالات والذى هو نبع الجمال كله .. إننا نفنى حبًّا .

وما الصيام إلا التمرين الأول فى هذه الرحلة

إنه التدريب على ركوب الفرس وترويضه وتطويعه بتحمل الجوع والمشقة وهو درس الانضباط والأدب والطاعة .

وهذه المعانى الراقية « الجميلة » ليس منها ما نعرف فى صيام اليوم من فوازير ونكات وهزليات وصوانٍ ومكسرات وسهرات .

وإنما الصائم يفرغ نفسه للذكر وليس للتليفزيون .. ويخلو للصلاة وقيام الليل وتلاوة القرآن وتدبر معانيه وليس للرقص

وترديد الأغانى المكشوفة .

وقد كان رمضان دائمًا شهر حروب وغزوات واستشهاد فى سبيل الله .

كانت غزوة بدر فى رمضان .. كما كانت حرب التتار فى رمضان .. وحرب الصليبيين فى رمضان .. وحرب إسرائيل فى رمضان .

ذلك هو الصيام الرفيع .. ليس تبطلا .. ولا نومًا بطول النهار وسهرًا أمام التليفزيون بطول الليل .. وليس قيامًا متكاسلا فى الصباح إلى العمل .. وليس نرفزة وضيق صدر وتوترًا مع الناس .. فالله فى غنى عن مثل هذا الصيام ، وهو يرده على صاحبه ولا يقبله ، فلا ينال منه إلا الجوع والعطش .

وإنما الصيام هو ركوب لدابة الجسد لتكدح إلى الله بالعمل الصالح والقول الحسن والعبادة الحقة .

واسأل نفسك عن حظك من كل هذا فى رمضان وستعلم إلى أى حد أنت تباشر شعيرة الصيام .

الزكـاة

كان من عادة إخواننا الشيوعيين حينما يذكر موضوع الزكاة أن يبتسم الواحد منهم فى سخرية وكأنما وجد الثغرة التى ينفذ منها ، فالزكاة عنده هى الحل المخجل لمشكلة العدل الاجتماعى ، فالعدل لا يعالج بالتسول وبتوزيع الصدقات ، وإنما بالبتر والاستئصال والنكال والتنكيل بالمستغلين الظالمين ، ونزع أصحاب المال وأصحاب الأرض من جذورهم بانقلاب شيوعى يصحح الأوضاع ، وهذا التوصيف الشيوعى للزكاة خاطئ .

ولكن نبرة العنف فى كلام الرفاق تذكرنى دائماً برأى قاله المفكر الإسلامى المغربى الدكتور المهدى بن عبود : إن الشيوعية ليست نظرية وليست مذهبًا وليست فكرًا كل هذا تمويه ، ولكن الشيوعية فى الحقيقة طبع .. الشيوعية غل وحقد وضغن وطبيعة

ثأرية تنزع بصاحبها إلى طلب النكال والتنكيل والإذلال والتسلط ، وهم لا يرون إصلاحًا إلا أن يكون بترًا واستئصالاً دمويًّا وقلبًا لكل شىء من القواعد ، وهى طبيعة تلتمس دائماً المذهب الذى يساعدها ، ومن هنا كان اختيارهم للشيوعية لا عن اقتناع ولا عن منطق ولا عن عقل ، ولكن عن طبع ، وهم أنفسهم الذين اختاروا فيما مضى مذهب الخوارج والقرامطة والخرمية ، وهم أنفسهم الذين اختاروا فيما بعد التكفير والهجرة ، لأنه يشبع فيهم نفس الطبيعة .

ثم نعود إلى تصور الرفاق عن الزكاة ونقول لقد فهموها خطأ ، فليست الزكاة هى تفضل من الغنى يلقى به للفقير من باب حسنة لله يا محسنين ، وليست صدقة لمتسول ، بل هى حق يؤخذ من خير مال القادر ، ويصل إلى يد المحتاج فى كرامة ودون أن يسأل أو يمد يدًا ، فما يصل إليه حق وليس تفضلا ، وحكمه حكم الضريبة التى تؤخذ بقانون وتنفق بقانون .

ثم إن الإنفاق ليس له حد أقصى فهو فى حده الأدنى اثنان ونصف فى المائة ، وتلك هى الزكاة المفروضة ، ولكنه مفتوح فى حده الأقصى إلى ما شاء الله وما شاء كرم المعطى وإيمانه .

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ .

أى كل ما تراه زائداً عن حاجتك حتى ٩٩ فى المائة مما تملك إذا اعتبرت أن حسبك لقمتك وثوبك وكفافك والباقى لله فهى

تجارة مع الله وتعامل مع الخالق وليست تفضلا على الخلق ، ولكن مثل هذا الإنفاق الزائد ، لا يكون إلا تطوعًا واختيارًا من صاحبه وليس فرضًا من أحد ، وهى من حيث اسمها « زكاة » ، فهى تزكية لصاحبها وتطهير له .. يتطهر بها من الشح والبخل والأنانية فالمنتفع الأول منها صاحبها .

والصدقات أوساخ الناس كلما أنفقت منها تطهرت وَصَفَتَ نفسك من تعلقاتها المادية الأرضية .

ولا ينقص مال من صدقة ، وما أنفقت من مال فإن الله يخلفه قد يخلفه الله مالا أو صحة أو رحمة أو ذرية صالحة أو نجاحًا أو توفيقًا ، ولكن لابد من أن يثيب الله فاعل الخير دنيا وآخرة هذا قانون إلهى لا يتخلف ويعرفه تمامًا الذين يقبلون على الزكاة ويتنافسون فيها والله لا يخلف وعده أبدًا .

والزكاة تلطف الحقد وتكسر العين الحاسدة وتؤلف القلوب ، لأنها مال حلال يخرج من صاحبه حبًا وكرامة وطواعية ويصل إلى المستحق دونما منٍّ ولا أذى .

وإذا أدخلنا فى نصاب الزكاة ، زكاة الشركات وزكاة البنوك ، وزكاة المؤسسات التجارية ، وزكاة الدول التى خصها الله بالموارد والثروات ، فإن مجموع النصاب الناتج سيتجاوز المليارات عدًا ، وسيصبح فى طاقته أن يغير موازين الاقتصاد الموجودة تمامًا ، ثم إن إنفاق هذه المليارات بأسلوب عصرى

واستثمارها لصالح الطبقة الفقيرة ، ولخلق المشاريع لتشغيل الأيدى العاطلة وبناء الصناعات . والارتفاع بالتعليم كفيل بأن يغير وجه الحياة دون عنف ودون قهر ودون نكال أوتنكيل .. هكذا تلتقى الأيدى فى محبة وتعاون وتكافل فيثمر الخير مزيدًا من الخير ، أما العنف الشيوعى فلن يثمر إلا عنفًا ، ولن يثمر القهر إلا رفضًا وكسلا ولا مبالاة ، ولن يثمر التسلط إلا يأسًا وسلبية وينتهى الأمر بأن ينفض كل واحد يده من كل شىء ، ويقول لتفعل الدولة ما تريد ، ولكن الدولة فى الشيوعية ليست كائنًا حيًا سويًا ، وإنما هى ديناصور ومسخ شائه من القوى البوليسية والشعب الخائف المذعور ، ثم طواغيت ومراكز قوى تعمل طليقة باسم الحزب وتظلم وتستغل ، وتنهب كما تشاء باسم الحزب ، وتغطى جرائمها بالشعارات والأكاذيب والإعلام الموجه .

وشتان بين هذا التكوين الاجتماعى المتشنج وبين التكوين المتناسق للمجتمع الإسلامى الذى يعمل فيه الكل مؤمنين بأن العمل عبادة ، وأن الإنفاق تعامل شخصى مع الله ، وأن الصدقة تقع أولا فى يد الله قبل أن تقع فى يد الفقير ، وأن علاج المريض عبادة ، وإقامة جدار عبادة ، وإنشاء كوبرى عبادة .. وأن المعروف لا يضيع والعمل الصالح لا يذهب سدى ، وأن الملك له مالك ، وأن فى السماء إلها عادلا عدله لا يتخلف ، وكل هذا يثمر

سكينة ورضاً وراحة قلب تساوى الدنيا وما فيها .

فأين هذا من حال مجتمعات الوفرة والغنى التى ينتحر أصحابها برغم الوفرة ، وترتفع فيها إحصاءات الجنون والأمراض النفسية والقلق والاكتئاب برغم الغنى ، وتتحلل الأسر وتتفكك العائلات وتنتشر المخدرات والشذوذ الجنسى والجرائم والسرقات ، برغم العلم والتكنولوجيا والتقدم وتضاعف أعداد مراكز البوليس وأقسامه ، ومع ذلك لا تشعر بلحظة أمن ولا تستطيع أن تخرج دولارًا من جيبك ، ولا أن تنام دون أن تغلق المزاليج والترابيس خلف بابك .

لأنها مجتمعات مادية كل مليم فيها محسوب بالكومبيوتر ، ثم لا اعتبار عندها لأى شىء آخر .. أو بشكل أدق . لا تؤمن بأن هناك شيئاً آخر خارج اللحظة الحاضرة والدولار الذى فى جيبك .. لا حساب لشىء اسمه الغيب ولا اعتقاد فى إله .

والذين يؤمنون منهم بالله لا يدخلون هذا الإيمان فى حساب الكومبيوتر ، وهم لهذا يستبدلون الزكاة بشركات التأمين ومعاشات النقابات وبدلات البطالة ، وكلها صدقات ، ولكن ذات منطلق مختلف ، فهى لا تعطى لوجه الله ، وإنما اجتهاد علمى من عند صاحبها .. ولسان حال كل منهم يقول :

﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ .

وفارق كبير فى النية والصفائية بين العملين فأحدهما يقول :

وفقنى الله فأعطيت ما أعطيت ابتغاء وجهه . والآخر يقول :

« اجتهدت من عندى وأنفقت وأعطيت » .

فأحدهما لا يرى إلا الله والآخر لا يرى إلا نفسه .. ولهذا ينتهى عمله إلى الإحباط أما العمل الأول فإن الله يثمره بكرمه ويحفظه برعايته .

وتلك هى الزكاة .. مرهمًا وبلسمًا وملطفًا ونشوة للنفس ، وطهرة للقلب ، وهى تعامل مع الله رأسًا دون وسيط ، وإيمان بالغيب وثقة فى المقدور ، ويقين بقوانين العدل الإلهى التى لا تتخلف ، وهى شىء آخر تمامًا غير مفهوم المعونة الاجتماعية فى المجتمع الغربى وقد يسأل سائل فيقول أليس كلاهما عملا صالحًا ..

فنقول نعم مع فارق كبير فى العرفان ، ذلك أن فى الزكاة لا تعرف لك يدًا ولا ترى لك يدًا ، ولا ترى إلا يد الله سبحانه الذى ليس كمثله شىء .

أما فى المعونة الاجتماعية بالكومبيوتر فلا ترى إلا الورقة المرقمة الخارجة من الكومبيوتر ، ولا ترى إلا يدك وما تبذل .. وعلى الأكثر لا ترى سوى إنسانيتك .

والفرق فرق عرفانى .

وهل الدين كله إلا هذه الكلمة الصغيرة ذات الحروف القليلة .. العرفان .. ؟ وهل طلب الله من نبيه سوى العرفان ؟

فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك .

وهل يفترق مؤمن عن كافر إلا بهذه المعرفة ، الذين يرجون أيام الله ، والذين لا يرجون أيام الله ، والذين يوقنون بالآخرة والموقف والحساب . والذين لا يؤمنون إلا بيومهم ولحظتهم ..

صدقونى إن كلمة الزكاة تعنى الكثير ..

الحج

الجمعة .. الشمس تنحدر إلى المغيب على جبل عرفات .

الجبل مزروع بالخيام .. مليون وخمسمائة ألف حاج يحطون عليه كالحمام فى ثياب الإحرام البيض .. لا تعرف الواحد من الآخر .. لا تعرف من الفقير ومن الغنى .. ولا تعرف من التركى ومن العربى ؟ .

اختفت الجنسيات .. واختفت الأزياء المميزة واختفت اللغات .. الكل يلهج بلسان واحد .. حتى الجاوى والصومالى والأندونيسى والزنجى والأذربيجانى الكل يتكلم العربية .. بعضهم ينطقها مكسرة وبعضهم ينطقها بلكنة أجنبية .. وبعضهم يمد بعض الحروف ويأكل بعض الحروف ولكنك تستطيع أن تفهم من الجميع وتستطيع أن تسمع أنهم يهتفون .. لبيك اللهم لبيك .

والذين لا يعرفون العربية تراهم قد التفوا حول مطوف

يرددون وراءه الدعاء العربى حرفًا حرفًا فى خشوع وابتهال .

فى البقعة التى كنت أقف فيها أكثر من خمس عشرة جنسية مختلفة فى مكان لا يزيد على أمتار معدودة .. التركستان وانباكستان وكازخستان وغينيا وغانا ونيجيريا وزنزبار وأوغندة وكينيا والسودان والمغرب واليمن والبرازيل وإسبانيا والجزائر وسيلان .. كلهم حولى يتصافحون ويتبادلون التحية ، ويهنئ بعضهم بعضًا .

ولولا أن المطوف أخبرنى بهذه الجنسيات لما عرفتها ، فالكل كانوا يبدون لعينى وكأنهم عائلة واحدة فى مجلس عائلى حميم ..

على بعد خطوات كان أكثر من ستين هنديًا يلتفون حول مطوف هندى ، وهو الآخر فيما يبدو يقرأ لهم الدعاء العربى من كتاب فى يده .. وهم يرددون خلفه الدعاء وهم يبكون وقد تخضلت لحاهم الطويلة الكثة بالدموع .

وهم قطعًا لم يكونوا يعرفون العربية ، ولم يكونوا يدركون معانى ما يرددون من حروف .. وإنما شعروا بها بقلوبهم فبكوا .

كان كل واحد يشعر أنه يخاطب الله بهذه الحروف وأنه فى حضرة الله وفى ضيافته وفى رحابه .. وأنه يقف حيث كان يقف محمد عليه الصلاة والسلام .. النبى العظيم البدوى الفقير الأمى .. وأنه يسجد حيث كان يسجد ، ويركع حيث كان يركع ، ويردد ما كان يردده من دعاء .. بذات اللسان العربى ..

وفى ذات اليوم .. يوم الجمعة من ذى الحجة .. ومض ذبذبات صوت النبى وأصوات أصحابه مزجت فى الفضاء حوله ..

فلا شيء يفنى فى الطبيعة ولا شيء يستحدث

عرفت أن هؤلاء الستين هم من فقراء طائفة هندية وأنهم جاءوا إلى مكة على الأقدام وعلى سفن شراعية وعلى جمال .

وكان زعيمهم يحمل علماً عبارة عن خرقة ممزقة .

وبعضهم جاوز الثمانين .. وبعضهم كف بصره .. وبعضهم كان يحمل بعضًا .

وكان الكل يبكون بحرقة ويذوبون خشوعًا .

كانوا فقراء حقًا .

وعلى بعد خطوات كان هناك هندى آخر ، قال لى المطوف إنه مهراجا يملك عدة ملايين .. وكان بذات ملابس الإحرام البيضاء .. وكان يبكى بذات الخشوع .. وكان مشلولا يحمله أتباعه على محفة .

كان فقيرًا هو الآخر حقًا .

ومن منا ليس فقيرًا إلى الله .

إن الملايين لا تعفى أحداً من الشيخوخة والعمى والمرض والموت .

إن السيد وخادمه يمرضان بالأنفلونزا ويتران بنفس الأعراض . . . رى السيد يعانى دائمًا أكثر من الخادم .

ويستنجد بعشرات الأدوية والعقاقير ، ويجمع حوله الأطباء فلا يفعل له العلم ولا الطب شيئًا .. وكانوا يقولون لنا فى كلية الطب على سبيل السخرية .. إن الأنفلونزا تشفى فى سبعة أيام بدون علاج .. وفى أسبوع إذا استخدمنا العلاج .

والأنفلونزا مرض بسيط .. تافه .. هى مثل من ألف مثل لضعف الإنسان وحاجته وفقره الحقيقى مهما كثرت فى يده الأموال وتعددت الأسباب .

من منا ليس فقيرًا إلى الله وهو يولد محمولا ويذهب إلى قبره محمولا وبين الميلاد والموت يموت كل يوم بالحياة مرات ومرات .

وأين الأباطرة والأكاسرة والقياصرة ؟

هم وإمبراطورياتهم آثار .. حفائر .. خرائب تحت الرمال .

الظالم والمظلوم كلاهما رقدا معًا .

والقاتل والقتيل لقيا معًا نفس المصير .

والمنتصر والمهزوم كلاهما توسدا التراب .

انتهى الغرور .

انتهت القوة .. كانت كذبة .

ذهب الغنى .

لم يكن غنى .. كان وهمًا .

العروش والتيجان والطيالس والخز والحرير والديباج .. كل

هذا كان ديكورًا من ورق اللعب .. من الخيش المطلى والديمور المنقوش .

لا أحد قوى ولا أحد غنى .

إنما هى لحظات من القوة تعقبها لحظات من الضعف يتداولها الناس على اختلاف طبقاتهم .

لا أحد لم يعرف لحظة الغنى ، ولحظة الضعف ، ولحظة الخوف ، ولحظة القلق .

من لم يعرف ذل الفقر ، عرف ذل المرض ، أو ذل الحب أو تعاسة الوحدة ، أو حزن الفقد ، أو عار الفضيحة أو هوان الفشل أو خوف الهزيمة .

بل إن خوف الموت ليلحق فوقنا رءوسنا جميعًا .

كلنا فقراء إلى الله . كلنا نعرف هذا .

وهم يعرفون هذا جيدًا .. ويشعرون بهذا تمامًا ، ولهذا يبكون .. ويذوبون خشوعًا ودموعًا .

سألنى صديقى وهو رجل كثير الشك :

– وما السر فى ثياب الإحرام البيضاء وضرورة لبسها على اللحم وتحريم لبس المخيط .. وما معنى رجم إبليس والطواف حول الكعبة .. ألا ترى معى أنها بقايا وثنية .

قلت له : أنت لا تكتفى بأن تحب حبيبك حبًّا عذريًّا أفلاطونيًّا ، وإنما تريد أن تعبر عن حبك بالفعل .. بالقبلة

والعناق واللقاء .. هل أنت وثنى ؟

وبالمثل من يسعى إلى الله بعقله وقلبه .. يقول له الله : إن هذا لا يكفى .. لا بد أن تسعى على قدميك .

والحج والطواف رمز لهذا السعى الذى يكتمل فيه الحب شعورًا وقولا وفعلا .

وهنا معنى التوحيد .

أن تتوحد جسدًا وروحًا بأفعالك وكلماتك .

ولهذا نركع ونسجد فى الصلاة ولا نكتفى بخشوع القلب .. فهذه الوحدة بين القلب والجسد يتجلى فيها الإيمان بأصدق مما يتجلى فى رجل يكتفى بالتأمل .

أما ثياب الإحرام البيضاء فهى رمز الوحدة الكبرى التى تذوب فيها الأجناس ويتساوى فيها الفقير والغنى .. المهراجا وأتباعه .

ونحن نلبسها على اللحم .. كما حدث حينما نزلنا إلى العالم فى لحظة الميلاد وكما سوف يحدث حينما نغادره بالموت .. جئنا ملفوفين فى لفافة بيضاء على اللحم .. ونخرج من الدنيا بذات اللفة .

هى رمز للتجرد .. لأن لحظة اللقاء بالله تحتاج إلى التجرد كل التجرد .

ولهذا قال الله لموسى :

﴿ اخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ﴾ .

هو التجرد المناسب لجلال الموقف .

وهذا هو الفرق بين لقاء لرئيس جمهورية .. ولقاء مع الخالق .

فنحن نرتدى لباس التشريفة لنقابل رئيس الجمهورية .

أما أمام الله فنحن لا شىء .. لانكاد نساوى شيئاً .

وعلينا أن نخلع كل ثياب الغرور وكل الزينة .

قال صديقى فى خبث : ورجم إبليس ؟

قلت :

– أنت تضع باقة ورد على نصب تذكارى للجندى المجهول ، وتلقى خطبة لتحيته .. هل أنت وثنى ؟

لماذا تعتبرنى وثنيًا إذا رشقت النصب التذكارى للشيطان بحجر ولعنته .. إنها نفس الفكرة .

إنها كلها رمزيات .

أنت تعلم أن النصب التذكارى مجرد رمز ، وأنه ليس الجندى .

وأنا أعلم أيضاً أن هذا التمثال رمز ، وأنه ليس الشيطان .

وبالمثل السعى بين الصفا والمروة إلى حيث نبعت عين زمزم التى ارتوى منها إسماعيل وأمه هاجر .. هى إحياء ذكرى عزيزة

ويوم لا ينسى فى حياة النبى والجد اسماعيل وأمه المصرية هاجر .

وجميع شعائر ديانتنا ليست طقوسًا كهنوتية بالمعنى المعروف ، وإنما هى نوع من الأفعال التكاملية التى يتكامل بها الشعور والتى تسترد بها النفس الموزعة وحدتها ..

إنها وسيلة لخلق إنسان موحد .. قوله هو فعله .. فالكرم لا معنى له إذا ظل تصريحًا شفويًا باللسان ، وإنما لابد أن تمتد اليد إلى الجيب ثم تنبسط فى عطاء ليكون الكرم كرمًا حقيقيًا .. هل هذه الحركة وثنية أو طقساً كهنوتيًا .

وبهذا المعنى ، شعائر الإسلام ليست شعائر ، وإنما تعبيرات شديدة البساطة للإحساس الدينى .

ولهذا كان الإسلام هو الدين الوحيد الذى بلا طقوس وبلا كهنوت وبلا كهنة .

ألا تراهم أمامك أكثر من مليون يكلمون الله مباشرة بلا واسطة ويركعون على الأرض العراء حيث لا محاريب ولا مآذن ولا قباب ولا منابر ولا سجاجيد ولا سقوف منقوشة بالذهب ولا جدران من المرمر والرخام .

لا شىء سوى العراء .

ونحن عراء .

ونفوسنا تعرت أمام خالقها فهى عراء .

ونحن نبكى .. كلنا نبكى .

وسكت صديقى وارتفعت أصوات التلبية من مليون وخمسمائة ألف حنجرة.. لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .

وكنت أعلم أن صديقى مازال بينه وبين الإيمان الحقيقى أشواط ومراحل ومعراج من المعاناة .

مازال عليه أن يصعد فوق خرائب هذا البناء المنطقى الذى اسمه العقل ويستشرف على ينابيع الحقيقة فى تدفقها البكر داخل قلبه .. حينئذ سوف يكف عقله عن اللجاجة والتنطع ويلزم حدوده واختصاصه ، ويدرك أن الدين أكبر من مجرد قضية منطقية ، وأنه هو فى ذاته منطق كل شىء .. وأن الله هو البرهان الذى نبرهن به على وجود الموجودات لأنه قيومها (هو الذى أوجدها من العدم فهى موجودة به وبفضله) ، فهو برهان عليها أكثر مما هى برهان عليه .. وكيف يكون العدم برهانًا على الوجود .. وكيف يكون المعدوم شاهدًا على موجد الوجود .

إنها لجاجة العقل .. وهى سلسلة من الخرائب المنطقية لابد أن نمر بها فى معراجنا للوصول إلى الحقيقة .. وهذا عيب العصر الذى يدعى فيه العقل كل شىء .

وعصرنا للأسف عصر العلوم الوضعية والمنطق الوضعى .. هو عصر الألكترونيات والكهرباء والكيمياء والطبيعة .

والواحد منا فى بداية تلقيه لهذه العلوم الوضعية ، ولفرط

انبهاره بها وبمنجزاتها يتصور أنها علوم كلية يمكن أن يناقش بها الأمور الكلية مثل الوجود الإلهى فيقع فى خطأ من يحاول أن يقيس السماء بالشبر ويزن الحب بالدرهم .

وتمضى عليه سنوات من التمزق والمعاناة قبل أن يكتشف أن الطبيعة والكيمياء علوم جزئية تبحث فى المقادير والعلاقات واختصاصها هو القضايا الجزئية ، وهى لا تصلح بطبيعة معاييرها للحكم على الدين لأنه قضية كلية .

الدين هو العلم الكلى الذى يحتوى على كل تلك العلوم .. فى حين لا يحتوى عليه أى منها .

وعندنا نور آخر نستدل به على الحقيقة الدينية ، نور القلب وهدى البصيرة واستدلال الفطرة والبداهة .

هنا نور نستشف به الحقيقة بدون حيثيات .

هنا منطقة فى الإدراك هيأها الله للإدراك المباشر .

وهى مرتبة أعلى من مراتب الشعور العادى .

وكما أن العقل أعلى فى الرتبة من حاسة مثل الشم واللمس ، كذلك البصيرة أعلى فى الرتبة من العقل ومن الإدراك بالمنطق العقلى الجدلى .

والبصيرة هبة متاحة لكل منا ، ولكن صدأ العرف والتقليد والادعاء العقلى ، والأحكام الجاهزة الشائعة . هذا عدا الغرور وظلمة الشهوات والرغبات وسعار الأحقاد والمطامع .. كل هذه

الغواشى ترين على مرآة البصيرة فتحجب نورها الكاشفة .

ويمضى العمر والإنسان يصارع هذه الرغبات ويتمزق ، ويعانى ويسأل ويتساءل ويحفر ، فى داخل نفسه حتى تنهتك الأستار ، وتنجلى الغواشى ، ويبدأ يدرك الخفية بهذه الرؤية الكلية التى هى هبة بصيرته .

وهنا يبدأ يعرف ما هو الدين .

وقد يرى بالبصيرة من لا يحمل الشهادات .

وقد تعمى بصيرة المتعلم المؤهل فى الجامعات .

وجلاء القلب فضل إلهى قد يوهب وقد يكتسب ، ولا توجد شروط فى المعارف الإلهية ، وهذا الهندى المسلم الفقير الحافى العارى الغارق فى دموعه قد يعرف عن الله أكثر مما نعرف نحن الذين نكتب فى الدين والله .

وربما لو سألته عن شعوره لما استطاع أن يشرحه فى عبارات مثل العبارات المنمقة التى نكتبها .. وهو أمر لا يهم .. فالمعارف العالية قد تعلو على العبارة وقد تعجز عنها الإشارة .. فلا يبقى إلا الصمت والدموع .

ولهذا هم يبكون على عرفات فى لحظة لقاء مع النفس والله .. تبدو فيها الكلمات مبتذلة .. واللسان عطلا ، والعبارات خرساء ، فلا تبقى إلا الدموع ، وهى دموع فرح وحزن وندم وتوبة وتطهر وميلاد .

وهى فجر روحى يعرفه من جربه .

وقد توحى اللحظة الواحدة والظرف الواحد بشيئين مختلفين تمامًا وربما متناقضين . فحينما كنا نطوف بالكعبة فى زحام من ألوف مؤلفة ، كان صديقى يلهث مختنقًا وكل ما يخطر له بالمناسبة هو تخيله لو كانت هذه الكعبة فى أوربا فى برلين مثلا ، إذن لاختلف الأمر ولطاف حولها الأوربيون فى طوابير منظمة لا يزحم فيهم الواحد الآخر .. بينما كنت أنا أنظر إلى الألوف المؤلفة التى تدور كالذرات البيضاء وأرى فيهم الملايين بلا هوية ممن حجوا وطافوا وعاشوا وماتوا .. أرى فيهم أبى وأمى .. كانوا هنا يطوفون منذ سنوات فى هذا الزحام نفسه .. ومن قبلهم جدى الذى جاء إلى هنا على ظهور الإبل .. ثم الأجداد .. وأجداد الأجداد من قبل إلى أيام النبى الذى خرج من مكة مهاجرًا وعاد إليها فاتحًا .. كنت أنظر فى الجموع الحاشدة من منظور تاريخى وفى خناق الزحام نسيت نفسى تمامًا ، وفقدت هويتى ، ولم أعد أعرف من أنا .. هأنذا قد مت أنا الآخر .. وهذا ابنى يطوف ويذكرنى وهو يطوف ، ثم يموت ذات يوم ويصبح هو الآخر ذكرى . كانت لحظة روحية شديدة التوهج فقدت فيها إحساسى بذاتى تمامًا ، وغبت عن نفسى وامتلأت إدراكًا بأنه لا أحد موجود حقًا سوى الله .. وتذكرت السطر الأول من قصة الخلق .

فى البدء كان الله ولا شىء معه .

وفى الختام يكون ولا شىء بعده .

هو الأول والآخر .

هو ..

نعم هو ولا سواه .

كانت لحظة من المحو الكامل لكل شىء بما فى ذلك نفسى ذاتها ، فى مقابل ملء مطلق وملاء مطلق لموجود واحد مطلق هو الله .

وبالرغم من الإحساس بالغياب فإنه كان إحساساً فى الوقت ذاته بالحضور .. الحضور الشامل المهيمن المالئ لكل ذرة من الشعور .. حضور ماذا .. ؟

وأحار فى وصف تلك اللحظة ولا أجد الألفاظ ولا العبارات وأكتفى بأنها أعمق ما عشت من لحظات .

إنها أشبه بعدة ستائر تفتح متتالية بعضها من وراء بعض .. تفتح ستارة لتكشف عن مسرح صغير هو الواقع الفردى بتفاصيله، ثم تفتح ستارة فى العمق لتكشف عن واقع آخر خلفى كبير ، هو الواقع التاريخى يبتلع الواقع الأول بما فيه . ثم تفتح ستارة ثالثة فى العمق البعيد تكشف عن حقيقة الحقائق التى يبهت أمامها كل شىء .

هو إحساس دينى يصعب تصويره فى كلمات

هو أشبه بموقف مقاتل على الجبهة .

إنه فى تلك اللحظة ينسى همومه الصغيرة .
هموم وطنه تبتلع همومه .
وجراح وطنه تبتلع جراحه فينسى مشكلات بيته الصغير ويذوب فى مشكلات مجتمعه الكبير .
هناك حضور أكبر ابتلع الحضور الأصغر .
وبالمثل لحظة الوقوف فى حضرة الله .
هنا الحضرة العظمى .. حضرة الحق .
وهى حضرة هائلة تذوب أمامها الحواس تمامًا .
يفنى الواقع الصغير .. واقع النفس ومشكلاتها اليومية .. ثم الواقع الزمنى المحيط بتفاصيله .. ثم الواقع التاريخى كله .
ثم يكون فناء النفس ذاتها فى لحظة احتواء كامل من ذات عظمى مهيمنة .
هى لحظة صوفية نعرفها فى الحب .. ويرويها لنا المحبون .
والحب البشرى لا شىء بالنسبة للحب الإلهى .
وجمال امرأة لا شىء بالنسبة للجمال المطلق الكلى .
أين كان صديقى من هذا كله ؟
ما أبعد كل منا عن الآخر مع أن ذراعى فى ذراعه .. كان يفكر ويمنطق ويرتب الحيثيات .
وكنت أذوب حبًّا وقد قفزت بى اللحظة فوق حاجز العقل وجاوزت بى الحدود والتفاصيل لتضعنى على ذروة أرى منها رؤية

كلية . وأدرك منها إدراكاً كليًّا .
هو الحب .
والدين فى جوهره حب .. والحج هجرة إلى بيت الحبيب والطواف للعشاق .
هؤلاء لا يجدون فيه كلفة ولا تكليفًا .
وإنما يجدون حوارًا مؤنسًا .. ومكالمة من تلك المكالمات السرية التى تضىء مجاهيل القلب .
وما أكثر ما شعرت به فى الكعبة مما لا أجد له كلمات .
قد يسأل سائل : لماذا نتكبد المشاق لنذهب إلى الله فى رحلة الحج .. ولماذا هذه الهجرة المضنية .. والله معنا فى كل مكان .. بل هو أقرب إلينا من حبل الوريد . وهو القائل إنه ﴿ قريب مجيب الدعوات ﴾ .. بل إن قربه لنا هو منتهى القرب .. فما الداعى إلى سفر وارتحال لنقف فوق عرفة ندعوه منها .. وهو القريب منا قرب الدم من أجسادنا .
والسؤال وجيه .
والحقيقة أن الله قريب منا بالفعل وأقرب إلينا من الدم فى أجسادنا ، ولكننا مشغولون على الدوام بغيره .
إنه لا يقيم دوننا الحجب ولكننا نحن الذين نقيم هذه الحجب .. نفوسنا بشواغلها وهمومها وأهوائها تلفنا فى غلالات مكثفة من الرغبات .. وعقولنا تضرب حولنا نطاقًا من الغرور ..

ومعه الاكتفاء المشبع بصحبة الخالق والائتناس به .

ولا يفهم من هذا تواكل .. لأن الرجل يصف ما بينه وبين الله وليس ما بينه وبين الناس .. ولو أنه وجد بين الناس شرًّا لقوّمه بالسيف .. فهذا الرجل نفسه هو المقاتل أبو ذر وأمثاله .. وهو نفسه الذى يثور على الحاكم الظالم .. فالامتثال لله شيء غير الامتثال لعباد الله ، بل هو عكسه ونقيضه ، فخادم الله هو أول من يثور على عباد الله دون خوف ..

والخائف من الله لا تساوى عنده الدنيا شيئا فهو أول من يضحى بها وبنفسه تحت ظلال السيوف فى سبيل كلمة حق .. لأن الله عنده هو الحق .. وعشق الله هو الموت فى سبيله .

وهذا هو توكل الإسلام وهو غير تواكل الكسالى الشحاذين من مفترشى الأرصفة .. وهؤلاء ليسوا مسلمين أصلا .

وليس كل من يتمتم :

﴿ قل هو الله أحد ﴾ بمسلم موحد .

والمهم ماذا تقول أعماله ..

إذا كان يعتقد حقًّا أن الله أحد لا سواه ، هو الضار النافع ، فلماذا يمد اليد إلى غيره ولماذا يتزلف ولماذا يتملق ، ولماذا يكدس المال والعقار وهو يعلم أن الله هو المالك الوحيد للأرض وما عليها وهو الوارث للكل ؟ ولماذا يكذب والله سميع ؟ ولماذا يسرق والله بصير ؟ ولماذا ينافق والله حسيب ؟ ولماذا يخون والله

رقيب ؟ ولماذا يهرب والله شهيد ؟

والتوحيد أعمال وليس تمتمة وهمهمة .

والشكر أعمال وليس ﴿ الحمد لله ﴾ على اللسان ..

يقول الله لآل داود ..

﴿ اعملوا آل داود شكرًا وقليل من عبادى الشكور ﴾

لأن المقصود بالشكر الأعمال الدالة على الشكر وليس التمتمة .. اعملوا آل داود شكراً .. اعملوا ..

والقرآن سياق متصل مستمر .. لكلمة اعملوا .. يبدأ بكلمة « اقرأ » للعلم ..

وبعد العلم يكون العمل على مقتضى التوحيد .

وهذا هو الدين ..

قل : لا إله إلا الله واستقم على معناها .

وهذه هى رحلة الهجرة إلى الله .. والحج والصلاة والصيام صورتها البدنية .

والحج فى معناه خروج .

خروج من أسمائنا إلى أسماء الله .

وخروج من اعتدادنا بأنفسنا إلى الاعتداد به . وخروج من العبودية للأسباب (المال والولد والأرض والعقار والمنصب والسلطة والنفوذ والجاه) إلى عبودية له وحده باعتباره سبب الأسباب .

وخروج من حولنا وقوتنا إلى حوله وقوته .

وخروج من إرادتنا إلى إرادته ، ومن رغبتنا إلى رغبته يقول نبينا محمد عليه الصلاة والسلام :

« اللهم بك انتشرت ، وبك آمنت ، وبك اعتصمت . اللهم بك أصول وبك أجول »

« اللهم بك أصبحت وبك أمسيت ولا فخر لى »

ويقول عن الحج :

« من خرج يريد الطواف خاض فى الرحمة »

وتفسير الرحمة إن الله يجذب همة عبده إليه ويعصمها من التفرقة .

ويقول عن الركوب للسفر :

« فإذا ركب الحاج الراحلة فى الظاهر يشهد فى السر أن الله .. الذى يحمله » وهى ذروة فى التوحيد ، فهو لا يعود يرى ..اقة أو القطار أو الطائرة ، وإنما الله هو الذى يحمل المسافر .. أسبابه وقوانينه .. تختفى الأسباب ليظهر ، المسبب ويختفى .. ليظهر الخالق .

وهكذا تكون كل خطوة بالقدم ترافقها خطوة بالقلب إلى .. من التوحيد .. ويكون مع طى الأبعاد طى داخلى للصفات ، .. العبد بصفاته من صفات ربه ، فيكون الرحيم الكريم .. الودود الرءوف الصبور الشكور ما استطاع .. وهو صعود

ومعراج لا نهاية له .. لأن كمال الله لا نهاية له .

وهكذا يقطع المهاجر إلى الله مرحلة بعد مرحلة حتى يصل إلى الميقات ، فيفنى عن نفسه ويموت عن صفاته ويصبح حاله فى الظاهر والباطن حال من يحيا بالله ، وحينئذ يحق عليه الغسل ولبس ثوب الإحرام على العرى فهذا هو ثوب الميت المولود .. وهو ثوب من قطعتين رمزاً لستر العورة الظاهرة وستر العورة الباطنة .. والحياء هنا على وجهين حياء من الخلق وحياء من الحق .. حياء من سوء الخلق الظاهر الذى تعرفه الناس ، وحياء من العورة الباطنة التى لا يراها إلا الله .. ومن هنا كانت الخرقتين الرمزيتين .

أما النحر والذبح فهو فى حقيقته ذبح للنفس ورغباتها وشهواتها وأهوائها .. وقد افتدى الله النفس بذبح الضحية .. فتضحى ببعض مالك رمزاً لقتل شهواتك وهوى نفسك .

أما تقبيل الحجر الأسود فهو تزود من غائب ، فأنت تضع شفتيك حيث وضع النبى شفتيه .

والحكايات عن أصل الحجر الأسود والكعبة كثيرة .. فهى بيت العبادة الأول اتخذه آدم وأرشده جبريل إلى مكانه .. وحينما غرقت الكعبة فى الطوفان استودع الله الحجر فى جبل أبى قبيس .. وظل الأنبياء يطوفون بمكان الكعبة حتى جاء إبراهيم فأقام قواعدها وأعاد جبريل الحجر إلى مكانه .

وفى عام مولد النبى كانت غزوة الفيل المعروفة وهدم الكعبة
كما أنه فى عام ٣١٧ هجرية هجم أبو طاهر القرمطى على مكة وقتل وسبى ثم اقتلع الحجر الأسود وحمله معه إلى الأحساء .. وقد تبرأ عبد الله المهدى من فعل أبى طاهر ومن أخذ الحجر الأسود وقتله الحجيج ، فبعث إليه برد الحجر الأسود ، ولكنه لم يستجب وبقى الحجر ٢٢ سنة ثم نقل إلى الكوفة عام ٣٣٩ هجرية ، ومنها أعيد إلى مكانه فى البيت .

ويرد بعض المؤرخين اقتلاع القرامطة للحجر الأسود إلى محاولتهم إبطال الحج وهدم الإسلام ، وإظهار عبادة النار ويرى آخرون أن الصراع كان سياسياً بحتا ، وكان المقصود منه محاربة عقيدة أهل السنة .

فالكعبة لم تسلم إذن من التخريب والهدم والسلب والنهب ... وعبر التاريخ لم يبق فيها حجر على حجر . لم يبق فيها إلا مكانها .

فهى رمز
ولا يصح تقديسها إلا رمزاً
وشأنها شأن القرآن حينما يقول عنه الله :
﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾
فلا يكون المقصود هنا « المصحف وورقه » .. لأن المصحف وورقه مادة شأنها شأن كل المواد يجرى عليها العطب والفساد ..

فإذا جرى البلى والفساد على الورق لا يكون فى ذلك مهانة للدين .

وإنما المراد هنا المعنى العميق .. « لا يمسه إلا المطهرون » .. أى لا يمس معانى القرآن ولا يفهم أسراره إلا النفوس المطهرة من أهوائها .

وبالمثل تقوم الكعبة كرمز .. لا كحجارة .

والحج والطواف والذبح والرجم وعرفة رموز .

فإذا تجاوز تقديس البقعة إلى تقديس الحجر ، خرج المؤمن عن إيمانه وسقط إلى حضيض الشرك والوثنية ، وما هكذا مراد الله بالكعبة .

والذى يسأل لماذا يكون الطواف سبعة أشواط والرجم سبع حصوات .. نقول له ولماذا لا يكمل نمو الجنين إلا فى الشهر السابع ؟ ولماذا يولد ميتا إذا نزل قبل السابع ؟ ولماذا تكتمل النوتة الموسيقية بالدرجة السابعة فلا تكون النوتة الأعلى بعد ذلك إلا جواباً للنوتة الأولى ؟

إنه سر فى بناء الكون المادى والروحى إنه سباعى التكوين ، وإن السبعة هى درجة الاستواء والتمام .

والنفس البشرية بالمثل سبع درجات . أسفلها النفس الأمارة ، ثم تليها النفس اللوامة ، ثم النفس الملهمة ، ثم النفس

وكان أمراً عجيباً أن يهدأ البحر وتقلع الرياح وتنتهى لعاصفة ، وينجو وحده ومعه ذهابه بهذه الطريقة التى تبدو كالمعجزة .

وتدمع عينا الجد ويومض بصره الكليل ، وكأنما يرى شريطاً سريعاً من اللقطات الرهيبة .. ويروى كيف قضى ليلتين فى البحر ثم انتشله مركب شراعى آخر قاصداً إلى الحج .. وكيف أتم حجته السابعة ثم عاد بسلام .

ويروى كيف كان الموت يترصد الحاج فى كل خطوة فى البحر وفى البر وفى الصحارى .. وبين الحر المحرق والرمال والعطش إذا ضل طريقه أو ماتت راحلته .. وعلى أيدى قطاع الطرق إذا ألقى به سوء حظه إلى عصبة من عصاباتهم .. أو بمرض معدٍ فى زمان لم يكن يعرف شيئاً اسمه طب وقائى أو يسمع عن لقاح للكوليرا أو التيفود .. وكانت الرحلة تطول إلى ستة شهور وسبعة شهور وسنة ، وكان الخارج إليها مفقوداً والعائد مولوداً .

وكان يختم قصته مبتسماً بفمه الخالى من الأسنان ..

وبرغم كل هذه الأهوال فقد حجيت سبع حجات وهاأنذا أموت بينكم فى الفراش كما يموت الكسالى من العجائز . لتعلموا ياأولادى أن كل شىء بأمر الله .. وأنه لا البحر يغرق ولا المرض يهلك ولا نار الصحارى تحرق ، وإنما هو الله وحده الذى يصرف الآجال كيف يشاء .

أذكر الآن قصة هذا الجد الطيب وتطوف بذهنى تلك الصور وأنا أضع قدمى فى الطائرة لأصل جدة فى ساعتين ، وفى ساعة ثالثة أكون فى الحرم أطوف بالكعبة ثم فى الساعة التالية أكون صاعداً إلى عرفات ، وبعد غروب الشمس أكون نازلا إلى منى لرمى الجمرات ثم طواف الإفاضة ثم تنتهى كل المناسك فى أمان .

وأتذكر السرب الطويل من خمسين ألف عربة تحمل نصف مليون حاج وتصعد كلها فى وقت واحد فى عدة طرق دائرية حديثة الرصف .. وكل شىء يتم فى سرعة ونظام ودون حادث وقد تناثرت وحدات الكشافة لتنظيم المرور .. وعلى الجبل تراصت مستشفيات كاملة التجهيز لعلاج وعزل أى حالة اشتباه .. وطوال ساعات الليل والنهار تطوف الرشاشات لقتل الذباب والبعوض فى أماكن توالده . وتطوف فرق أخرى لجمع القمامة وحرقها .

وبين مكة والمدينة يمتد أوتوستراد أملس كالحرير تنزلق عليه العربات فى نعومة ، وينام الراكب فى حضن كرسيه فى استرخاء لذيذ .

ما أبعد اليوم من الأمس .

وما أكثر ما نتقلب فيه من النعم .

وكلما أحاطتنا النعمة ازددنا لله هجراناً .

أين إيمان اليوم .. من إيمان النبى العظيم منذ ألف وأربعمائة سنة وهو خارج فى غزوة تبوك على رأس اثنى عشر ألفًا من المسلمين فى شهور القيظ ، المحرق ، ليخوض فى رياح السموم والحرور القاتلة سبع ليال يتهدده العطش فى كل خطوة .. وقد ترك من خلفه الأمان والظل الظليل والراحة فى خيام زوجاته .. ليلقى الله وليبلغ الرسالة .. وليحارب من ؟! .. الروم .. الذين احتشدوا على الحدود بمئات الألوف .

واليوم ترتفع حرارة الجو بضع درجات فندير جهاز التكييف ونغلق أبواب غرفنا لا نبرحها لأن الخروج إلى الشارع مجازفة غير مأمونة .

وما أبعد اليوم من الأمس حقًّا .

وما أفدح ما خسرنا حينما خسرنا الإيمان .

كلمة التوحيد .. ماذا تعنى

أكثر الذين عبدوا الله وزعموا أنهم يعبدونه واحدا جعلوا له شركاء .. أكثرهم فعلوا هذا من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون . أخناتون الذى بلغ القمة فى التوحيد ، عاد فجعل من نفسه ابنا لهذا الإله فقال فى نشيده مخاطبًا ربه . إنك فى قلبى . وليس هناك من يعرفك . غير ابنك الذى ولد من صلبك . ملك مصر العليا والسفلى . الذى يحيا فى الحق . سيد الأرضين أخناتون .

لقد وقع برغم بصيرته الشفافة فى هذا الإفك القديم وظن نفسه ابنا لله من صلبه ، وفى فارس تصوره الذين عبدوه إلهين اثنين .. (هرمز واهرمن) : « أحدهما إلها للخير والآخر للشر » وفى الهند تصوروه ثالوثًا « براهما وفشنو وشيفا » ومن تحت الثالوث عددوا كثرة من صغار الأرباب وصلت إلى ثلاثمائه

وثلاثين مليونًا من الآلهة ، بعدد ما ظنوا من حيوانات ودواب ومخلوقات تحل فيها أرواح تلك الآلهة .

وفى اليونان عبدوا زيوس كبير الأرباب ثم جعلوا لهذا الكبير عصابة من صغار الآلهة بعدد ما تصوروا من قوى الطبيعة .

وعبد اليهود الرب « يهوا » إلها واحدًا ثم جعل بعضهم من النبى عزرا ابنا له مخالفين بذلك ما علمهم موسى من وحدانية الخالق .

وجاء عيسى بالتوحيد فاختلف من بعده الأتباع وجعلوا من المسيح ابنا لله وجعلوا الحقيقة الالهية الواحده ثالوثا .

ثم جاء الإسلام بختام الكلمة فى التوحيد فالله أحد صمد لا صاحبة له ولا ولد ، ليس له ند ولا ضد ولا مثيل ولا شبيه ، لا يتحيز فى مكان ، ولا يتزمن بزمان ، ولا يتحدد فى كم ، ولا يتمثل فى مقدار ، ولا يتقيد بإطار ، ولا تحيط به صورة ، ولا يتجسد فى جسد ، وهو ليس من هذا العالم ، بل هو فوقه ومتعال عليه فهو فى الإطلاق وهذا العالم فى القيد ، وفى كلمة بسيطة بليغة .. أحد .. أحد .. ليس كمثله شىء .

واعتقد المسلمون بهذا التوحيد بواقع الشهادة التى يقررونها خمس مرات كل يوم وفى كل أذان ، إنه لا إله إلا الله .. وأن الله أكبر من كل شىء مطلقًا .. ولكن الكثرة الغالبة منهم عادت فوقعت فى ألوان جديدة من الشرك الخفى ، وبات أكثر توحيد

المسلمين باللسان بأن الله أكبر .. على حين سلوك هذه الكثرة ومشاعرها يقول إن الدنيا أكبر ، وتحصيل المال أكبر وحيازة القصور والضياع أكبر ، والفوز برضا مرأة أكبر والتقرب للسلطة أكبر ، وهوى النفس أكبر .

الكثرة تقول لا نعبد إلا الله ولا نخاف إلا الله ، ولكن سلوكها يقول إنها تخاف الموت والفقر والمرض والميكروب والفيروس والشيخوخة أكثر ، وكأنما هذه الأشياء لها سلطة الضرر بذواتها .

الكثرة تطلب الشفاء من يد الطبيب وتتمسه فى الدواء ويقع الواحد فى اليأس لأنه لم يجد الحقن مستوردة كذا أو المضاد الحيوى كذا ، وينسى أن الله من وراء الأسباب ، وأنه هو الذى أودع صفات الشفاء فى هذا المضاد أو هذه الحقنة وأنه هو الذى قدر البرء على يد هذا الجراح .. وأنه هو الذى خلق الفيروس والميكروب والبكتيريا ، وأنه هو الذى نشرها وأرسلها وأنه هو الذى أقام حواجز المناعة فى أجسامنا ، وأنه إن شاء هدم هذه المناعة ، وإن شاء أعانها وأنه خالق الحر والبرد والصقيع ، وأنه هو الذى وضع خاصية التغذية فى الغذاء وخاصية الإرواء فى الماء ، وخاصية القتل فى السم ، وخصية النفع فى الترياق .

لا شىء له سلطة النفع بذاته . ولا شىء له سلطة الضرر بذاته .

وإنما الله هو الضار النافع وما عدا ذلك أسباب أقامها الله لتعمل بمشيئته ، والتوحيد الصحيح أن نخافه هو ، لأنه لا شيء يستطيع أن يضرنا بدون مشيئته ، وأن نطمع فيه وحده لأنه لا شيء يستطيع أن ينفعنا بدون إذنه إنه وحده الذى يعمل طوال الوقت بالرغم من كثرة الأيدى التى تبدو فى الصورة .. ألم يقل للمقاتلين فى بدر :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

(١٧ - الأنفال)

مع أن الظاهر أنهم هم الذين قتلوا المشركين .. وأن النبى عليه الصلاة والسلام هو الذى رمى .

هذا هو الظاهر .

ولكن الحقيقة أنها أدوار اختار الله أبطالها منذ الأزل .. اختار للشر نفوسا علم أنها تحب الشر وعرف أنها لا تصلح إلا للشر بحكم ما أخفته فى سرها .. ولهذا اختار إبليس للغواية .. لأنه علم فيه الكبر .. واختار محمدًا عليه الصلاة والسلام للهداية لما علم فيه من مودة ورحمة .. وهكذا وزع الأدوار بحكم استحقاقات علمها أزلا .. ثم أعان كل واحد على ما يصلح له .. أعان المضل على الضلال وأعان الهادى على الهدى .

﴿ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا ﴾ .

(٢٠ - الإسراء)

﴿ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ﴾ .

(٥ - ١٠ الليل)

من طلب المعونة على جريمة أعانه عليها وعليه وزر اختياره . ومن طلب المعونة على خير أعانه عليه وله ثواب اختياره . وإنما دور كل منا هو توجيه طاقته .

ولكن الله سبحانه وتعالى هو صاحب الطاقة الكلية ولا يمكن إنفاذ فعل بدونه فهو الوكيل القائم على إنفاذ جميع الأفعال ، وهو اليد الفاعلة وإنما دور القاتل أنه أضمر القتل واختاره وفكر فيه وعزم عليه وهذا هو إسهامه الذى سيحاسب عليه .. أما إنفاذ جميع الأفعال فالله منفرد به .. ولهذا قال لمحاربى بدر :

﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ .

(١٧ الأنفال)

وهذا هو المعنى الحقيقى للتوحيد أن الله هو الفاعل الوحيد .. وأنه إذا كانت لنا أعمال فهى سرائرنا ونياتنا وما تعزم عليه وما نوجه إليه طاقاتنا وما نبادر إليه ، لهذا قال الله عن نفسه إنه يضل من يشاء ويهدى من يشاء .

﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ .

(٢٣ - الرعد)

﴿ ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ﴾ .

(١٤٣ - النساء)

ولكنه شاء سبحانه وتعالى أن يطمئننا فقال :

﴿ ويضل الله الظالمين ﴾ . (٢٧ - إبراهيم)

﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ .

(٣٤ - غافر)

﴿ كذلك يضل الله الكافرين ﴾ . (٧٤ - غافر)

فجعل الفعل الإلهى قائماً على استحقاق . وهذا يجعل من الدنيا كلها تحصيل حاصل لاستحقاقات أزلية استحقتها نفوس الخلائق بحكم منازلها التى تفاضلت بها أزلا .. وإنما أراد الله أن نخرج ما نكتم فى قلوبنا فخلق هذه الدنيا ليشهد كل منا على نفسه :

﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ . (٧٢ - البقرة)

﴿ إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ . (٦٤ - التوبة)

وهذا يعنى أن هذه الدنيا هى الفصل الثانى من رواية ، وإنه كان هناك فصل أول سابق عشناه ولا نذكر عنه شيئا .. وإننا بحكم ما قدمنا فى هذا الفصل السالف استحققنا ما نجد الآن من خير وشر .. وأن ما يجد كل منا فى حياته هو أشبه بكشف النقاب عما يكتم وعما يخفى فى ذات نفسه .

والله يعلم حقيقتنا من القدم ، ويعلم عنا كل شيء ولكنه أراد لنا أن نعلم عن أنفسنا بعض ما يعلم فخلق لنا الدنيا لنرى أنفسنا فى أعمالنا .

وليس هذا قولا بتناسخ ، فأنا لا أومن بالتناسخ الذى يتكلم

عنه الهنود ، ولا فى تقمص الأرواح الذى يعتقد فيه الدروز .. ولا أظن أن الفصل الأول من الرواية كان على هذه الأرض ولا أنه كان تقمصًا سابقًا لحياة بشرية .. إنما هو أمر من أمور الغيب لا يعلمه إلا الله ، وهو ماض محجوب لن يهتك عنه الستر إلا يوم يبعث الله من فى القبور ويحصل ما فى الصدور .

يومئذ تتكشف الأسرار ويعرف المجرمون أنفسهم على حقيقتها فيقولون معترفين :

﴿ ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴾ . (١١ - غافر)

ولا خروج .. فهل يستطيع أن يخرج إنسان من نفسه أو يتبرأ إنسان من بديه « هيهات »

ويسأل سائل .. لمن الملك اليوم ؟

وتجيب السماوات والأرض وتجيب الملائكة وكل الخلق .. لله الواحد القهار ، وهو أمر ليس بجديد .. فالملك كان لله دائما فى ذلك اليوم وفى كل يوم .. ولكن الظاهر فى الدنيا كان يخدع من يراه .. كان يبدو أن لبعض الناس مُلكًا . وكان يبدو أن الطبيب يشفى وأن السلطان يرزق ، وأن السم يميت وأن الرصاصة تقتل ، وأن هذا ينفع وأن ذاك يضر ، وأن هناك جبارين غير الله يحكمون .

ونسينا ما وصف الله به نفسه فى القرآن الكريم بأنه :

﴿ هو الأول والآخر والظاهر والباطن ﴾ .

(٣ - الحديد)

فإن كان الطبيب يشفى ، والسلطان يرزق ، والسم يميت ، والرصاصة تقتل ، فإن الله هو الظاهر فى كل هذه المظاهر وهو الفعل الخالص فيها .. وما يجرى على جميع الأيدى هو الوجه المنظور للمشيئة فى تلك اللحظة .. سبحانه .. كل يوم هو فى شأن .. وتلك شئونه ..

وإذا كنا رأينا جبارين من غير الله يحكمون فما حكموا فى الحقيقة إلا به .. وإنما تجلى حكم الاسم الجبار على نفوسهم لأن تلك النفوس لم تكن لتقبل بحكم استعدادها الأزلى إلا هذا اللون من التجلى .. لم تكن تصلح لأن يتجلى عليها الرحيم ولا الودود ولا الرءوف .. ولم تكن لتقبل التجليات الجمالية لأسماء الحليم والكريم والحنان والمنان واللطيف ..

فنحن مازلنا مع الله لم يظهر فينا غيره .. هو الظاهر بأسمائه وأفعاله فى كل شىء .. ولكن من وراء ستار الأسباب ومن خلف نقاب الكثرة .

وبرغم هذه الكثرة فإنه لا إله إلا الله .. لا فعال سواه ، ولا شاف ولا رازق ولا نافع ولا ضار ولا محيى ولا مميت ولا جبار ولا مهيمن غيره .. إنها ذاته الواحدة الفاعلة أبدًا وأزلًا .

- ألا تبدو الطاقة الكهربائية فى كل مصباح بشكل مختلف حسب نوع الفتيل المعدنى داخله .

- ألا تبدو الكهرباء فى مصابيح النيون بألوان وتألقات متفاوتة حسب نوع الغازات فى تلك الأنابيب المفرغة .

ما أشبهها جميعًا بنفوسنا التى تختلف استعدادتها فتختلف أفعالها مع أن الفاعل فيها واحد ..

مجرد مثال .

والدنيا كلها مثال رامز للقدرة قدرة الواحد الأحد الذى ليس كمثله شىء وإذا رأيت هذا الواحد من وراء الكثرة وإذا أنت لم تعبأ بهذه الكثرة وشعرت بنفسك تتعامل طول الوقت وجهًا لوجه مع الله فلم تر شافيًا لك غيره برغم تعاطيك الدواء واستسلامك لمبضع الجراح ، وإذا رأيته هو الذى يطعمك ويسقيك وشعرت بنفسك تأكل من يده وتشرب من يده برغم كثرة المشارب والمطاعم التى تتردد عليها ، وإذا نسيت نفسك ولم تر غيره فأنت المسلم الموحد على وجه التحقيق .

وإنمايأتى فساد الأعمال من تصور الواحد منا أنه يأتيها وحده .. كما تصور قارون أنه صاحب العلم وصاحب العمل وصاحب الفضل وقال مختالا وهو يتحدث عن ماله وجاهه :

﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾ . (٧٨ - القصص)

فلم ير غير نفسه ولم يشهد غير علمه الذاتى ونسى أنه

لا يملك علمًا ذاتيًّا ولا قدرة ذاتية ، وإنما قدرته وعلمه وذكاؤه كانت كلها هبات سيده وهذا هو الشرك الخفى .. حينما يصبح إله الواحد نفسه وهواه وملكاته .

﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ . (٢٣ - الجاثية)

ولهذا يتبرأ العارفون عن أعمالهم الصالحة ويسندونها إلى الله وتوفيقه .

وأكثر من هذا يتبرأ الواحد من إرادته الخيرة ومن نياته الطيبة ويرى أنها من أفضال سيده .. ثم يتبرأ من نفسه التى بين جنبيه .. وينسى ذاته .. ويشهد أنه لا يملك من نفسه إلا العدم وأن كل ماله من الله .. ولا يعود يختار .. وإنما يشهد الله يختار له فى كل لحظة .. ثم لا يعود يشهد إلا الله فى كل شىء .. فذلك هو التوحيد الكامل .. وهذه هى لا إله إلا الله حينما تصبح حياة .

ونرى دعاء ، أبى الحسن الشاذلى فى هذه الحالة من الوجد : رب خذنى إليك منى ، وارزقنى الفناء عنى ، ولا تجعلنى مفتونًا بنفسى ، محجوبًا بحسى . ونقرأ فى المواقف والمخاطبات للنفرى ما يقوله الله لعبده العارف « ألق الاختيار ألق المساءلة البتة » ..

فثواب مثل هذا التوحيد الكامل الذى يلقى فيه العبد اختياره ويأخذ باختيار الله فى كل شىء .. هو المغفرة الكاملة

وعدم المحاسبة . يقول الله فى حديثه القدسى إلى المذنب : لو جئتنى بملء قراب الأرض خطايا ولقيتنى لا تشرك بى شيئًا لوجدت عندى ملء قراب الأرض مغفرة .

فتلك ثمرة التوحيد ، وهذا ثواب كلمة لا إله إلا الله ، إذا جعلها الواحد منا حياته وسلوكه ومنهجه ونبضه وتنفسه وذوب قلبه . وهذا ما أراده القرآن الكريم بإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى . وهذا ما أراده رسولنا العظيم محمد عليه الصلاة والسلام ، حينما سأله أحدهم أن يوجز له الدين الذى تلقاه عن ربه فى كلمتين .. فقال كلمته الجامعة : « قل لا إله إلا الله ثم استقم » ..

وهذه هى الملة الحنيفية ملة أبينا إبراهيم الذى لم يعرف لنفسه إلها ولا خالقًا ولا رازقًا ولا شافيًا ولا منقذًا إلا الله .. والذى ألقى به فى النار وظهر له جبريل يسأله حاجته .. فقال له النبى العارف الموحد . أما لك فلا ..

إنه فى ساعة الخوف والهول والفزع لا يسأل أحدًا إلا ربه .. لأنه لا يرى أحدًا يملك له شيئًا حتى ولو كان كبير الملائكة . الروح القدس نفسه .. فلا فاعل فى الكون إلا الله .. ولا يملك أحد أن ينفع أو يضر إلا بإذنه

وتلك مرتبة عرفانية لا يصل إليها إلا نبى .

وهذا معنى التوحيد .

الحب

الحب والهوى والغرام خداع ألوان ، ماتراه فى المحبوبة مثلما نراه فى قوس قزح ، جمال ألوان قوس قزح ليس من قوس قزح نفسه ولكنه من فعل نور الشمس على رذاذ المطر المعلق فى الهواء ... فإذا غابت الشمس وجف المطر اختفت الألوان وذهب الجمال .

وهكذا محبوبتك جمالها فيما يتجلى عليها من خالقها .. فإذا انقطع عنها التجلى شاخت ومرضت وذبلت وعادت قبحًا لا جاذبية فيه .. إن ما كانت تملكه من جمال لم يكن ملكًا لها بالأصالة ، بل كان قرضًا وسلفة .

حتى السجايا الحلوة والنفوس العذبة والخلال الكريمة هى بعض ما يتجلى فينا من أسماء خالقنا الكريم الحليم الودود الرءوف الغفور الرحيم ..

أليست هذه أسماؤه ... ! ؟

وهل نحب حينما نحب إلا أسماءه الحسنى حيثما تحققت وأينما تحققت .

وهل نحب حينما نحب إلا حضرته الإلهية فى كل صورة من صورها .

والحكيم العارف من أدرك هذه الحقيقة فاتجه بحبه إلى الأصل .. إلى ربه ولم يلتفت إلى الوسائط ولم يدع بهرج الألوان يعطله .. ولم يقف عند الأشخاص .. فهو من أهل العزائم لا تعلق له إلا بربه .. لقد وفر على نفسه خيبة الأمل وانقطاع الرجاء وخداع الألوان .

لقد أحب من لا يهجر ، وعشق من لا يفتر ، وتعلق بمن لا يغيب ، وارتبط بمن لا يموت ، وصاحب من بيده الأمر كله وساهم فى البنك المركزى الذى يخرج منه النقد جميعه .. وهام بالودود حقًا ذاتا وصفاتا وأفعالا .

وذلك هو مذهب العارفين فى الحب .

فهل عرفت ...

وإذا كنت عرفت .. فهل أنت بمستطيع .

وليس كل عارف بمستطيع .

ومذهب العارفين ليس بمجرد معرفة .. ولكنه همة واقتدار وكدح ومغالبة .. والنفس لا تستطيع أن تعشق إلا ما ترى ولا أن

نتعلق إلا بما تشهد بصرًا وسمعًا وحواسا .

أما تعلق الفؤاد بالذى ليس كمثله شىء فمرتبة عليا لا يوصل إليها إلا بالكدح والكفاح والهمة .. وقبل ذلك كله .. بالتوفيق والرضا من صاحب الأمر كله ..

ولهذا أدرك العارفون أن هذا أمر لا يمكن الوصول إليه إلا ركوعًا وسجودًا وابتهالاً وعبادة وطاعة وخضوعا وخشوعًا وتذللا وتجردًا وإن هذه مرتبة لا تنال بشهادة جامعية ولا بماجستير أو دكتوراه ، أو تحصيل عقلى .. ولكنها منزلة رفيعة لا مدخل إليها إلا بالإخلاص وسلامة القلب وطهارة اليد والقدم والعين والأذن ولا سبيل إليها إلا بخلع النعلين .

تخلع جسدك ونفسك ..

وليس مقصود القوم هنا هو الزهد الفارغ والتبطل .. وإنما أن تخلع حظك وأنانيتك وشهوتك وطمعك وشخصانيتك ، وأن ترتد إلى الطهارة الأولى اللاشخصانية التى تعطى فيها وتحب دون نظر إلى حظ شخصى أو عائد ذاتى .. فهى حالة عمل وعطاء وبذل وليست حالة زهد فارغ وتبطل .. وهى فى ذروتها حالة فداء وتضحية فى سبيل إعلاء كلمة الله .. تضحية لا تنظر إلى نيشان أو نصب تذكارى .. ولكنها تبذل المال والدم والنفس لوجه الله وحده .

ويقول العارفون إن مائدة الاستشهاد هى أعلى موائد التكريم

ولا دخول إليها إلا ببطاقة دعوة من صاحبها . ولا دخول إليها اقتحامًا أو قهرًا وتبجحًا .. وإنما هى دعوة من الكريم يتلقاها صاحب الحظ بالتلبية والهرولة ويتلقاها المحروم بالتكاسل والتخاذل .. والتخلف ..

ذلك هو الحب فى مذهب القوم ، وهو غير الحب فى مذهب منتجى أفلام السينما ومؤلفى الرومانتيكيات ، وهو أيضًا غير الحب عند الكثرة الغالبة من الناس .. حيث الحب هوى ونار وشهوة وجرية وصدور عارية ومجوهرات . ولحظات تتألق بالشعر ثم ما تلبث أن تخبو وتنطفئ وتترك رمادا من الأكاذيب .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . (٢١ - يوسف)

﴿ بل أكثرهم لا يعقلون ﴾ . (٦٣ - العنكبوت)

﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ . (١١٦ - الأنعام)

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ﴾ . (٣٦ - يونس)

﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ . (٢٣ - النجم) .

﴿ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل ﴾ . (٤٤ - الفرقان) .

هكذا يعلمنا القرآن أن الكثرة لا تعرف أما العارفون فقليل ما هم ولكن الصحافة التى تخاطب الكثرة والسينما التى تتملق الجماهير والمؤلفين الذين يطمعون فى الرواج والشعراء الذين

يتبعهم الغاوون يتغنون بألوان أخرى من الحب . ويتيهون معا فى أودية الغفلة التى تنتهى بنا إلى جنون قيس وانتحار جوليت وسقوط راهب ثاييس ومباذل فالنتينو وجرائم آل كابونى وموائد مونت كارلو .

والمنتجون عندنا أكثر تواضعًا فهم يكتفون بكباريهات شارع الهرم .

وهو أمر قديم قدم التاريخ منذ أيام بابل ، ومنذ أيام أنطونيو وكليوباتره ومنذ أيام الفراعنة والإغريق والرومان .. ونقرأ فى كتاب الموتى هذه السطور التى كتبها الحكيم المصرى منذ خمسة آلاف عام .

لا تنظر إلى امرأة جارك فقد انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك .. إنها لحظة قصيرة كالحلم والندم يتبعها .

إنها معارف قديمة منذ أيام آدم .. وقصة بائدة منذ مقتل هابيل .

ولكن لا أحد يذكر ... ولا أحد يعتبر .. ولا أحد يتعلم من الدرس .

وأكثر الذين يعرفون لا تنفعهم معرفتهم بسبب ضعف الهمم وتخاذل الأنفس وغلبة الشهوات .

إن السلالم إلى الأدوار العليا موجودة طول الوقت ، ولكن

لا أحد يكلف نفسه بصعود الدرج والأغلبية تعيش وتموت فى البدروم ...

ولو كلف أحد منهم نفسه بالصعود .. وتحمل مشقة الصعود وشاهد المنظر من فوق ، لبكى ندمًا على عمر عاشه فى البدروم بين لذات لا تساوى شيئًا ولكنه الضعف الذى ينخر فى الأبدان .

والبشرية تسير من الضعيف إلى الأضعف ، والأجيال الجديدة أكثر ضعفًا وأكثر تهافتًا على العاجل البائد من اللذات ، واقرأ المقال من أوله واسأل نفسك .. من أى مرتبة من البشر أنت .. هل أنت عارف .. وإذا كنت عارفًا .. فهل أنت بمستطيع .

وابك ماشئت من البكاء فلا شىء يستحق أن تبكيه .. لا فقرك ولا فشلك ولا تخلفك ولا مرضك .. فكل هذا يمكن تداركه أما الخطيئة التى تستحق أن تبكيها فهى خطيئة البعد عن إلهك ..

فإن ضيعت إلهك .. فلا شىء سوف يعوضك .

وكل أحلام الشعراء لن تغنيك شيئا .

المــرأة ..

نظرة على الشارع وعلى فاترينة الأزياء ومجلات الموضة وصالونات الكوافير وإعلانات الروج والمانيكير وأنواع الباروكات ، سوف تشعرنا بمدى الجناية التى جنتها الحضارة المادية العصرية على عقلية المرأة . ومن الوهلة الأولى سوف نفهم أن هذه الحضارة لم تر فى المرأة إلا دمية أو إلا لعبة أو متعة ، لإثارة الرغبة والشهوة وإشعال الخيال .. حتى أسماء العطور . عطر « سكاندال » بمعنى فضيحة .

هكذا أرادوا بالمرأة حينما صمموا لها الفساتين ورسموا لها الفتحات على الصدر والظهر ، وحينما حزقوا لها البنطلونات وضيقوا البلوزات .. واستدرجوا المرأة من غرورها حينما قالوا لها .. ما أجمل صدرك .. ما أجمل كتفك .. ما أروع ساقيك .. ما أكثر جاذبيتك حينما يكون كل هذا عاريًا .

ووقعت المرأة فى الفخ .. وخلعت ثوب حيائها .. وعرضت جسمها سلعة تنهشها العيون .

وقالوا لها البيت سجن ، وإرضاع الأطفال تخلف ، وطهى الطعام بدائية .. مكانك إلى جوار زوجك فى المصنع وفى الأتوبيس وفى الشارع .

وخرجت المرأة من البيت لتباشر ما تصلح له وما لا تصلح له من أعمال .. وألقت بأطفالها إلى الشغالة .. وقالوا لها جسمك ملكك أنت حرة فيه بلا حسيب وبلا رقيب وليس لك إلا حياة واحدة وكل يوم يمضى من أيامك لن يعود .. عيشى حياتك بالطول وبالعرض .. أنفقى شبابك قبل أن ينفد ، واستثمرى أنوثتك قبل أن تشيخ ولا تعود لها سوق .. وساهم الفن بدوره ليروج هذا المفهوم .. ساهمت السينما والمسرح والإذاعة والأغنية والرقصة والقصيدة .. ودخلت الغواية إلى البيوت من كل باب وتسربت إلى العقول ، وتخللت الجلد وأشعلت الخيال بسعار الشهوات ، وأمرضت القلوب بداء الخيانة .. وأصبحت المثل العليا فى المجتمع هى أمثال مارلين مونرو وكلوديا كردينالى ولولو بريجيدا .

وأصبحت البطلات صاحبات المجد عندنا أمثال شفيقة القبطية وبمبة كشر ومنيرة المهدية .

وأصبحت القدوة هى زوجة هربت من بيت الزوجية .

وظنت المرأة بنفسها الشطارة والفهلوة فظنت أنها تقدمت على أمها وجدتها حينما اختارت لنفسها هذه المسالك .. والحقيقة أنها استدرجت من حيث لا تدرى ، وكانت ضحية الإيحاء والاستهواء وبريق الألفاظ ، وخداع الفن وأجهزة الإعلام ، والرأى العام الموجه الذى تصنعه حضارة مادية وثنية لا تؤمن إلا باللحظة ، ولا تعترف إلا بلذائذ الحس .. الصنم المعبود لكل انسان فيها هو نفسه وهواه .. والمحراب هو فاترينة البضائع الاستهلاكية ، والهدف الذى من أجله يلهث هو إشباع الحاجات العاجلة ..

ترى كيف كانت نظرة الإسلام للمرأة .. الإسلام المتهم بالرجعية والتخلف والبداوة .. الإسلام الذى قالوا عنه إنه أفيون الشعوب ..

لم ينظر الإسلام للمرأة على أنها دمية أو لعبة أو متاع ، بل نظر إليها على أنها أم ورأى فيها شريكة عمر لا شريكة ليلة .. وقال عنها القرآن الكريم إنها السكن والمودة والرحمة وقرة العين .. واختار لها البيت والحجاب والرجل الواحد تعظيماً لها وحفاظًا عليها ..

وكانت خديجة لمحمد عليه الصلاة والسلام أكثر من مجرد [illegible] لقمة أو شريكة فراش ، فقد شاركته الدعوة والرسالة ، واحتضنت هموم النبوة .. وكانت الناصح والصديق والأم الرءوم والسند المعين ..

واشتغلت المرأة بالتمريض ، وصاحب النساء أزواجهن فى الغزوات .. وجلست المرأة للفقه .. وجلست لتلقى العلم .. وأنشدت الخنساء الشعر بين يدى النبى عليه الصلاة والسلام .. وكان يستزيدها قائلا هيه ياخناس ..

ولم يبح الإسلام التعدد إلا للضرورة وبشرط العدل .. وما أباح التعدد إلا إيثارًا لأن تكون المرأة زوجة ثانية بدلا من أن تكون عشيقة وهذا أكرم ..

ثم جعل القاعدة العامة فى الزواج هى الزوجة الواحدة لأن العدل بين النساء أمر لا يستطيعه الرجال ..

وقد عهد الإسلام إلى الرجل بأن يبنى ويعمر ويفتح الأمصار ويتاجر ، ولكنه عهد إلى المرأة بما هو أشرف من كل هذا بحضانة الإنسان وتربيته .

إن الرجل له أن يصنع أى شىء ولكن المرأة وحدها هى التى سوف تصنع الرجال .. وهذا غاية التكريم وغاية الثقة هل هذا هو التخلف .. أم أن التخلف الحقيقى هو أن تسير المرأة نصف عارية حلمها إثارة رجل وغايتها متاع ليلة ، ومثلها الأعلى امرأة هلوك يقتتل حولها السكارى مثل الراحلة بمبة كشر .. كم خدعوك يا أخت ..

وكم استدرجوكَ إلى حتفك .. وخلعوك من عرشك وانتزعوك من خدرك .. وباعوك فى أسواق النخاسة رقيقًا تثمن بقدر ما فيها من لحم

وأنت نصف الأمة .

ثم إنك تلدين لنا النصف الآخر .. فأنت أمة بأسرها ..

ولا يستطيع الرجل أن يقود التطور وحده .

ترى هل آن الأوان لتعيدى النظر .. ترى هل آن الأوان لتعرفى قدرك وتعرفى دورك .

احترام الجسد

مأساة الإنسان أنه لا يوجد تواز بين نفسه وجسمه ، فالحادثة التى تقطع ساقه لا تقطع رغبته فى الجرى ، والجراحة التى تستأصل غدته التناسلية لا تستأصل رغبته الجنسية .. وحينما يضعف بصره بالشيخوخة لا تضعف رغبته فى الرؤية ، وعندما يضعف سمعه لا يزهد فى الطرب وحينما يضعف بدنه لا تموت شهوته .. وإنما العكس .. تسقط الأسنان وتزداد الرغبة فى المضغ .. وتبدأ المهزلة .

ومن لم يؤدب شبابه لن يستطيع أن يؤدب شيخوخته . ومن لم يتمرس على كبح نفسه صبيًّا لن يقدر على ذلك كهلا .. وسوف تتحول لذته فتصبح عين مهانته إذا طال به الأجل .. ولهذا نرى الله يطيل آجال بعض المسرفين ليكونوا مهزلة عصورهم ، وليصبحوا حكاية ونكتة تتندر بها الأجيال للاعتبار .. حينما

يتحول الفجار والفساق العتاة فيصبح الواحد منهم طفلا يتبول على نفسه وكسيحًا يحبو ومعوقا يفأفئ ويتهته ، وتسقط أسنانه التى سبق أن نبتت بالألم فينخرها السوس لتقع مرة أخرى بالألم ، وتعود أطرافه التى درجت على مشاية فتدرج على عكازين ويتحول الوجيه الذى كان مقصودًا من الكل إلى عالة وشيئًا ثقيلا وكومة من القمامة يتهرب منها الكل .. ثم لا يعود يزوره أحد .. ثم يموت فلا يشيعه مخلوق .. ولا تبكيه عين .. ولا تفتقده أذن .. ولا يذكره إنسان .. وكأنه دابة نفقت فى حفرة .. فذلك هو التنكيس .. الذى ذكره القرآن .

﴿ ومن نعمره ننكسه فى الخلق أفلا يعقلون ﴾ .

(٦٨ يس) .

والسر فى هذه المأساة .. أن النفس لا تشيخ ولا تهرم .. ولا تجرى عليها طوارئ الزمان التى تجرى على الجسد .. فهى من جوهر آخر غير مادة الجسد الكثيفة المركبة التى يطرأ عليها التحلل والفساد .

فالسائق مايزال محتفظًا بجميع لياقاته وسيظل شابًا على الدوام وإن كانت العربة الشيفروليه الفاخرة قد صدئت آلاتها وأصابها التلف وعجزت عن الحركة .. ولم تعد للسائق حيلة سوى أن يسحبها .. وتلك هى حادثة الشيخوخة .. نفس مازالت بكامل رغباتها وشهواتها .. ولكن لا حيلة لها مع جسد مشلول لم

يعد يطاوعها .. لا حيلة لها سوى أن تسحبه وتجره على كرسى متحرك .

يقول أهل الله فى شطحاتهم الصوفية الجميلة : إزالة التعلقات بعد فناء الآلات من المحالات .

فهم قد فهموا شيئًا أكثر من مجرد أن الأجسام آلات لتنفيذ رغبات النفس ، بل هى أشبه بالسلالم يمكن أن يستخدمها صاحبها فى الصعود أو فى الهبوط .. فالمعدة عضو أكل ولكنها أيضًا عضو صيام إذا تسلقت عليها .. وبالمثل الجهاز التناسلى عضو جماع ، ولكنه أيضًا عضو عفة إذا حكمته .. بل إنه لا معنى للعفة بدون وجود نزوع شهوانى للأعضاء تقابله بضبط إرادى من ناحية عقلك .

وتلك هى الفرصة التى أسموها .. إزالة التعلقات .

وسوف تضيع هذه الفرصة بالشيخوخة وانتهاء الأجل .. فلا أمل فى إزالة التعلقات بعد فناء الآلات فذلك من المحالات .

وبذلك فهموا علاقة النفس بالجسد فهمًا جدليًا .. فالنفس تؤدب الجسد ، ولكن الجسد أيضًا يؤدب النفس .. وعملية الردع عملية متبادلة بين الاثنين .

الفرامل المادية مطلوبة لتربية الفرامل السلوكية والعكس صحيح .. والأجل المحدود .. يمكن أن يكون عملية إنفاق وتبديد . أو عملية بناء وتشييد .. وبناء الشخصية النفسية

وتعديلها والارتقاء بها أو الانحطاط بها محتاج إلى الأسمنت الجسدى والخرسانة المسلحة من الخلايا .. الروح محتاجة إلى الطين .. والطين محتاج للروح .

والنمو النفسى والروحى والتقدم المعنوى والتطهر الخلقى محتاج لهيكل مادى يعرج عليه صعدًا .

وبهذا المعنى ينظر الصوفيون إلى الجسد بتقديس واحترام - ولا يحتقرونه - فهو عندهم محراب النفس .

فالنور فى النهاية يخرج من سلك متوهج .

ونور الشمس يخرج من اندماج ذرات الهيدروجين .

ونور الغاز يخرج من احتراق الزيت .

ونور فضائلنا يخرج من احتراق أجسادنا .

فالجسم قنديل يمكن أن يشع فضيلة .

والنظر إلى الجسد باعتباره نجس وخطيئة نظرة غير إسلامية بل هو أمر مناف للإسلام .. فالإسلام شمولى وجدلى ينظر إلى الإنسان باعتباره جسد ونفس وروح معًا .. بل إن الإنسان هو تفاعل الثلاثة معًا فى وقت واحد .. وجسد الإنسان يمكن أن يكون هو عين روحه فى لحظة .. كما أن روحه يمكن أن تكون عين جسده فى لحظة أخرى والمسألة تتوقف على النفس هلْ هى صاعدة على سلم الهيكل أو هابطة عليه .

والجسد عند الصوفية هو مجرد رسم مطلسم للروح ورمز رامز

لأسرارها .. وهو معراجها الذى تصعد عليه للحضرة الإلهية .

وفى حوار شعرى رقيق بين الروح والجسد ، يقول الصوفى أبو العزايم على لسان الروح مخاطبا الجسد :

أيا رسم من سفل تصاغ وترتقى
فبين بحال أو صريح كلام

فيجيبه جسده قائلا :

لولاى ما جاهدت فى الله مخلصا
ولولاى ما شرفت بالإكرام
فلولا ظلام الليل لم يعرف الضيا

وهو كلام دقيق وعميق ، فلولا المرض لم تعرف الصحة ولولا السواد لم يعرف البياض . وكل شىء لا يجلوه إلا نقيضه وبأضدادها تعرف الأشياء .

والجسم والروح كاللوح والقلم وكالمرآة والوجه وكالشمس ونورها .

وفى أسرار الروح لا ينتهى الكلام .

الشريعة متى .. وكيف

الشريعة أصبحت مطلبًا شعبيًا وأصبحت موضوعًا للمزايدة بين الأحزاب وأصبحت ورقة انتخابية ، وكل هذا طيب وجميل .. إن الكل يريد أن يعود إلى الله ، والكل يتسابق إلى المنهج الإلهى .. هذا حسن .. ولكن البعض يشعر بالإشفاق .. وهناك أقلام كثيرة تطالب بالوضوح .. وعندها حق .. فقد اختلف العصر واختلفت أنواع السرقات ويخشى البعض أن تقطع اليد التى تسرق عشرة جنيهات ، وتعفى اليد التى تختلس المليون جنيه لأن اجتهاد الفقهاء أعفى الاختلاس من الحد باعتباره لا يدخل تحت النص الحرفى لكلمة سرقة كما أن السرقة من مال عام أعفيت هى الأخرى من الحد لوجود شبهة الظلم فى المال الحكومى العام مما يجعل لمن يسرقه شبهة حق فيه .. وبالتالى لا يدخل التزييف والتزوير والرشوة .. كما أن الموظف الذى

يتقاضى عمولة قد تصل إلى عشرات الملايين كما فعل اليابانى تاناكا فى صفقة طائرات لوكهيد لا يدخل تحت طائلة الحد .

ومعنى ذلك أن أخطر مفهوم للسرقة فى عالمنا العصرى سوف يخرج من نطاق الحد ومن نص الشريعة ، وسوف يجد اللصوص الكبار ثغرة واسعة يهربون منها بسرقاتهم ولن يقع إلا اللصوص الصغار ونشالو الأتوبيس .

وقد أحسن الزميل أحمد بهجت حينما وصف الشريعة بأنها رحمة ووقاية وصيانة ودفاع عن الضعفاء من بطش الأقوياء ، وأن الحدود ليست إلا السياج من الأسلاك الشائكة المضروب حول هذه الخيمة من الرحمة ، وأن الإسلام لم يأت ليزيد فى عدد أصحاب العاهات وأنه لابد من التدرج ، ولابد من الانتقال بالمجتمع أولا إلى حالة من الكفاية والعدل ، ولابد من تيسير الزواج وتسهيل العفة وإيقاف هذا السيل العارم من الغواية والإثارة الشهوانية التى تقوم بها الأفلام السينمائية قديمها وحديثها وهذا العرى فى الصورة والأغنية والكلمة قبل أن نطالب شبابنا بالعفة والفضيلة .. لابد من إصلاح المناخ الاجتماعى والإعلامى والفنى وقطع دابر الاستغلال الاقتصادى بأنواعه قبل أن نأخذ الناس بالشدة وبالعقاب الغليظ .

إن عمر بن الخطاب لم يقطع يدًا فى عام المجاعة ، والنبى عليه الصلاة والسلام لم يقطع يدًا فى الحرب وكلاهما كان يطبق

الشريعة ، لأن كليهما فهم الشريعة بمعناها الحقيقى إنما رحمة .. لقد اجتهد الاثنان فى فهم الشريعة وفى فهم ظروف تطبيقها .. ومطلوب من فقهائنا أن يجتهدوا وأن يحاولوا أن يتفهموا الظروف الجديدة والأشكال الجديدة الخطيرة للسرقة فى عصرنا .

إننا نعيش بالفعل فى عصر تاناكا .. وأخطر أنواع السرقة هى الرشوة والعمولة والاختلاس ونهب المال العام ، فإذا أخرجنا هذه الجرائم من عقوبة الحد اتباعًا منا للسلف وتقليدًا للمفهوم السلفى فى تفسير كلمة سرقة ، فإنه يكون تقليدًا عن عماية واتباعًا عن جهل ، وذلك لاختلاف نوعيات الجرائم واختلاف الظروف فى العصرين .

ولو أننا أطلقنا تلك الأفلام الجنسية المسعورة على شبابنا وكلها أفلام تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف ، وتحض على الزنا جهارًا نهارًا ، ثم أشهرنا حد الرجم فوق الرقاب لظلمنا وما عدلنا . ولا يمكن أن نحول مجتمعًا داعرًا إلى مجتمع فاضل فى يوم وليلة بمرسوم وزارى ولا يمكن أن نحول الهبوط الفنى إلى سمو فنى فى لحظة بقانون ولا أن نقلب البرامج الخفيفة إلى برامج دسمة جادة فى طرفة عين .. وإنما لابد من التدرج .

وفى الفقه شىء يسمونه شيوع البلوى ..إن البلوى إذا شاعت وعمت فإنها تكون مدعاة للاستثناء ومدعاة إلى الإصلاح المتدرج .

وقديما كان شرب الخمر بلوى عامة وشائعة فى المجتمع القرشى ، ولهذا نرى أن الآيات التى نزلت بالتحريم نزلت متدرجة .. فى البداية نزلت آيات تقول إن للخمر فوائد وإن لها مضار وأن ضرها أكبر من نفعها .. ثم نزلت الآيات التى تحرم شرب الخمر وقت الصلاة ثم أخيرًا نزلت الآيات التى تحرم شرب الخمر إطلاقًا .

وقد كان سبب هذا التدرج فى التحريم هو شيوع البلوى

وكذلك كان إلغاء الرق فى الإسلام بالتصفية التدريجية بالعتق وأخذ الفدية من الأسير أو إطلاقه دون استرقاق والسبب أن الرق كان هو الآخر بلاء شائعًا وكان تحريمه بضربة واحدة باترة معناها خروج ألوف المتعطلين والمتسولين بلا عمل سوى السرقة أو الدعارة .. ولأن إلغاء الرق كان أمرا مستحيلا من طرف واحد فقد كان المسلمون والمشركون طرفين فى حرب سجال ولو أن المسلمين امتنعوا عن استرقاق الأسرى من طرفهم دون معاملة مساوية فى الطرف الآخر لكان هذا الشرع ظلمًا للمسلمين الذين يقعون أسرى وأرقاء على الطرف الآخر .. إن شيوع البلوى كان دائمًا عاملا هامًا فى التشريع ودافعًا إلى التدرج فى الإصلاح ..

إن الحقيقة التى يجب أن يفطن لها الجميع أن الشباب لم ينحرف وحده ولكن البيئة انحرفت والمناخ الاجتماعى انحرف

والفن انحرف والفكر انحرف والسياسة انحرفت .. وفى داخل البرلمان وجدنا تجار مخدرات يعتصمون بالحصانة البرلمانية وفيهم زعامات .. إننا بالفعل نعيش فى عصر تاناكا .. وكبار اللصوص هم الأولى بقطع الأيدى ومنتجو الأفلام الجنسية هم الأولى بالرجم ومافيا المخدرات وبعضهم فى أعلى المناصب هم الأولى بالشنق وإذا ناديتم بالشريعة فأنا أقول نعم وأنا أنادى معكم .. ولكنى أسأل أولا .. من يقطع يد من فى هذه الغابة ..

ومن منكم لم يرتكب خطيئة ليكون الرامى بأول حجر .. أقول الشريعة واجبة وهى حق ، ولكن الطريق إليها ليس العقاب وحده ولكن الإصلاح أولا .. لابد من إصلاح اجتماعى يجعل الفضيلة ممكنة قبل أن نعاقب تاركها .. ومن ثم لابد من التدرج والأخذ بمبدأ تطبيق الشريعة على مراحل لأن إصلاح المناخ الاجتماعى والفنى والفكرى والسياسى والاقتصادى لا يمكن أن يتم بين يوم وليلة .

هذه نظرة واقعية أعلم أنها لن تعجب هؤلاء الذين يحلمون بإصلاح كل شىء بانقلاب ويتصورون أن المدافع الرشاشة يمكن أن تحسم كل شىء وتأتى بالشريعة على ظهور الدبابات ، وأن الفضائل يمكن أن تصنع قهرًا وأن الشرف يمكن أن يولد بالرعب .

وأقول لهؤلاء إن العنف لا يلد إلا النفاق والكذب والتملق

وأن الخوف لا يلد إلا السلبية واللامبالاة .. وأن القوة لا تلد إلا مراكز قوة تأتى ومعها الإذلال والإرهاب والتنكيل ، وليس الحرية والكرامة والعزة . ولقد رأينا بأعيننا ماذا يفعل الجالسون فى مراكز القوة . ولن تأتى الشريعة بهذه الوسائل أبدًا ، لأن الشريعة رحمة ومحبة ، ولا وسائل لتحقيقها إلا الرحمة والمحبة . الشريعة هى قمة الحكمة الربانية .. وهى تحتاج إلى ذروة الحكمة البشرية فى الفهم وفى التطبيق .. وأى كلام غير ذلك غوغائية ومزايدات حزبية وبالونات دخان للتعمية ، وأى تطبيق للشريعة بدون فهم لن يكون سوى إجراءات مظهرية ، ومجرد مرهم سطحى لخراج معبأ بالصديد .

إن التقوى هى روح الأمر كله .

وحينها تزداد حرارة الإيمان وتسكن القلوب إلى ربها لا يعود الواحد منا يختار إلا ما اختار له ربه ويصبح هواه فيما شرعه الله دون تكلف .

وحسن التربية فى البيت والمدرسة والجامعة والمصنع .

وحسن القدوة فى الأب والمدرس ورئيس العمل وزعيم الحزب .

وحسن الدعوة إلى منهج الله بالقول الحسن والسلوك الحسن .

كل هذه وسائل أكثر فعالية فى تطبيق الشريعة من المزايدات

الانتخابية ، وفى القرآن يعلمنا ربنا قائلا فى آياته :

﴿ وقولوا للناس حسنا ﴾ .

ولن تجدوا واحدًا من الخمسة والأربعين مليونا يرفض الحسن من كل شيء ، والشريعة هى الحسن من كل شيء ، بل هى الأحسن من كل شيء .

عن التصوف

يحكون لنا عن الحلاج الذى كان يقف فى شوارع بغداد هاتفاً .. أنا الله .. سبحانى ما أعظم شأنى .. ياخلق الله مافى الجبة غير الله ..

وكيف تصيد له قضاته هذه الكلمات وأمثالها وحكموا عليه بالإعدام بتهمة الكفر .

ويعتذر الصوفية عن الرجل فيقولون : إن مثل هذا الكلام لا يصح أن يؤخذ على علاته .. فالحلاج صوفى من أهل المواجد والأحوال .

وهو لم يكن فى طوره حينما كان ينطق الكلمات ، وإنما كان فى حالة من الوجد والحب والوله ، وقد بلغ به حبه لله إلى ذروة فناء فى محبوبه فما عاد يدرك لنفسه وجودا وغاب تماماً عن نفسه فأصبح الله هو الذى يتكلم على لسانه فيقول : أنا الله .

ويسمون هذه اللحظة لحظة الشهود ... أو التجلى حينما يتجلى الله على قلب عبده فينسحق العبد ويفنى ويصبح عدما ويصبح الحضور لله ولا سواه ، والكلمة لله ولا سواه .

وشأنه فى ذلك شأن المجذوب المسلوب اللب والفؤاد والعقل ... والصوفى كذلك يجذب إلى الحضرة الجلالية جذبا لا حيلة له فيه فيرفع إلى حال من الرؤية وإلى جرعة من الحق أكبر من طاقته ، فتفقده العقل والقدرة وتذروه تراباً مثل الجبل الذى اندك دكاً ، وموسى الذى خر صعقاً .

وتمتلئ كتب الصوفية بمثل هذه المواقف ، وبمثل هذه المواجد والحالات وتستفيض فى وصفها .. ولا نملك حيالها إلا التحفظ الشديد .

ورأيى أن هذا الجانب من الصوفية ، هو واد كثير المهالك .. ومزلق خطر .. وأن السير فيه يضر أكثر مما ينفع .

وأخطر ما فى هذا المزلق أنه يمكن أن يجر الصوفى إلى فكرة وحدة الوجود .. وهى الفكرة التى تقوم عليها الفلسفة الهندية ، والتى تقول بوحدة الخالق والمخلوق ، وأن الله حال فى مخلوقاته متحد بهم .. وأنه هو وهم واحد .. فهو القاتل والقتيل والسكين ، وهو الذى خلقهم معاً فى وقت واحد .. وفى جراب واحد .. بمثل ما يقول الحلاج .. إن الله فى الجبة .. وهو كلام إذا مددناه على استقامته بالطريقة الفلسفية ينتهى بنا إلى نفى وجود الله

لا إثباته .. فكل ما نعترف به حينئذ هو مجموع ما نرى من وجود نعتقد أن هو فى جملته هو الله .. وهى عبارة مهذبة للإيمان بالوجود الموجود ونفى ما عداه أى نفى الله فى ذات الوقت .. ولهذا تلتقى الفلسفة البوذية والهندية مع الفكر المادى .

وأستبعد أن يكون بوذا لو أنه كان نبياً بحق أن يكون قد قال هذا الكلام .. وربما يكون حاله كحال المسيح الذى شوه اليهود تعاليمه ، وزيفوا أقواله من بعده وادعوا أنه قال أنا الرب .. أنا الله .

ولهذا يحرص الصوفية كلما ذكر الحلاج على توضيح أقواله بهذه المذكرة التفسيرية التى يقولون فيها إنه كان غائباً عن نفسه حينما كان يتكلم .

وأهم من هذه المذكرة التفسيرية فى نظرى أن نحاول فهم الله كما قدم لنا نفسه فى القرآن .

والله فى القرآن هو المتعالى .

هو متعال على خلقه ، كما يتعالى الصانع على صنعته ، وكما يتعالى الفاعل على المفعول .. وهو ليس فى « وحدة وجود » مع صنعته ، وليس متحداً بها ولا حالا فيها .. كما تصنع أنت الموتور فلا تكون متحداً به ولا حالا فيه .. وإنما تكون متعالياً عليه .. لو كان للموتور لسان ، ولو أنه تكلم وقال لن أتحرك .. فإنك تقول له بل تتحرك وتوصل أسلاكه بالكهرباء فتديره برغم أنفه ..

فأنت متعال عليه .. وأنت القاهر بالنسبة له .

وبالمثل الله فى القرآن هو القاهر فوق عباده . و « فوق » هنا لا تعنى المكان ، وإنما تعنى فوقية فى الرتبة .. لأن الله متعال على المكان أيضا .. وهو أيضا متعال على الزمان ، فهو لا يتحيز فى حيز ولا هو يتزمن بفترة .. ولهذا كان الأول والآخر والظاهر والباطن .. الأول قبل الزمان وقبل الوجود لأنه خالق للزمان والوجود ..والآخر بعد انتهاء الزمان وانتهاء الوجود ، لأنه الباقى بعد الكل . وهو الظاهر . وليس معنى ذلك أنه الحلاج أو غير الحلاج وإنما المقصود بكونه « الظاهر والباطن » .. إن الظاهر هو فعله .. والباطن ذاته .. وكل ما نرى ويظهر لنا ويجرى علينا هو بعض أفعاله .. فكلمة الظاهر هنا مقصود بها وجه الشمول .. الظاهر اليوم وبالأمس وعبر القرون الماضية والقرون الآتية كل ذلك فعله . ثم من قبل ذلك هو كائن فهو الأول ومن بعد ذلك يكون فهو الآخر .

والاتحاد بالله لا يقول به الإسلام لأنه غير ممكن.. وإنما الإسلام يقول بالقرب والبعد والجمع والفرق .. فهناك المقربون مثل الأنبياء والشهداء والصديقين .. وهناك المبعدون مثل الكفار .

والصالحون مجموعون على الله .

والمجرمون مفرقون عنه .

وهذا هو الجمع والفرق .

أما الاتحاد والوحدة والحلول فهى أمور يتنزه عنها الله .. فهو العلى المتعالى عن هذه الصفات .

والله فى القرآن هو الأحد .. والفرق بين الأحد والواحد أن الأحد لا ينقسم ولا يتجزأ وليس له بعض أو نصف .

ولهذا فهو « السلام » لأنه لا ينقسم على نفسه ... ولأنه يجمع الأضداد فى تكامل لا تناقض فيه .. فهو المعز المذل الباسط القابض الرافع الخافض النافع الضار .. هو جامع هذه الأضداد دون تناقض ودون تصارع ، فيجمع فى ذاته النفع والضر والجبروت والرحمة فى وحدة سلام لا تقبل القسمة .. وهى ذروة فى الكمال لا تصل إليها إفهامنا .

وقد نفهم نحن هذه الوحدة الداخلية بعض الشىء حينما نتوحد نحن أيضاً فى داخلنا .. فتكون نية الواحدة منا مثل قوله مثل فعله ، فيكون واحداً قلباً وعقلا وعاطفة وعملا .. وهو ما نصير إليه بالتوحيد وعبادة الواحد والتزام الطريق .

والله فى القرآن هو الحى وما سواه هالك أو صائر إلى هلاك .. وإذا كنا نحيا اليوم فإنما نحيا به بمدده فهو الحى الذى به الحياة فإذا انقطع مدده لم يبق لنا من وجودنا إلا العدم .

وهذا معنى كلمة « قيوم » أى أنه يقيمنا .. وأننا به نقوم ، كما أن الأفلاك والنجوم ممسوكة بقبضته جارية بقوانينه فهو قيومها .. وهو قيوم كل شىء .. قيوم هذه الحياة ، وقيوم الحياة

الأخرى حينما يقيمنا من الموت فلا يمكن أن يقوم أى شىء أو يوجد إلا بفضله .

وهو البصير بلا بصر ، والسميع بلا سمع ، والمتكلم بلا كلام وبلا حروف .. فالله لا يبصر بعين كما نبصر نحن ، ولا يسمع بأذن ولا يتكلم بلسان .. وإنما الله يبصر بذاته ويسمع بذاته ويتكلم بذاته ، بلا أدوات وبلا حروف وبلا لغة .. وكلمة الله روح وإرادة ومشيئة ، يقول لنا الله فى القرآن إن المسيح « كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » فالمسيح كلمته كما أن آدم كلمته .

وهو الخالق البارئ المصور . الخالق فى الملكوت حيث خلقنا نفوسًا بكلماته وعلمه . والبارئ حينما أعطى تلك النفوس رخصة الوجود ، كما يعطى الملك براءة الوسام ، فيصبح للمواطن الحق فى أن يلبسه والرخصة فى حمله .. وهو رمز لإطلاق تلك النفوس من قبضته .

والمصور حينما أنزل تلك النفوس إلى الدنيا بأمره وصور لها قوالبها فى الأرحام .. ﴿ يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ .

وهو النور .

ونور الله هو ما يقذف فى الضمائر والسرائر ، وهو نور الفطرة والبديهة ، ونور العقل الذى يكشف به الحق من الباطل .. ولا يقصد به نور الشمس أو الكهرباء أو النجوم ، فكل تلك الأنوار ظواهر مخلوقة مصيرها إلى الانطفاء .

وهو الصمد من الصمود والثبات والاستقرار حيث كل شىء من حوله يضطرب ويتغير ، وهو الصمد الذى لا يتغير ولا يضطرب كالمرساة وسط البحر يموج من حولها البحر ويضطرب ولا ملاذ للسفن من هذا الاضطراب إلا اللجوء إلى المرساة واللواذ بها ، وهو لهذا الصمد الذى يصمد إليه ويلجأ إليه من دوامة الخيالات والأوهام والأضاليل التى اسمها الدنيا .

والصمد بمعنى المصمت المتدامج .. فكل شىء مخلخل له جوف إلا هو .. والمادة كلها مخلخلة والذرة مخلخلة وجميع مكونات الذرة مخلخلة ، لأنها تركيبات من أجزاء مآلها العطب والفساد والانحلال .. ماعدا هو .. الجوهر الفرد .. الذى لا يتألف من أجزاء ولا عناصر ، المصمت بلا جوف .. الأحد الصمد .

وهو الرحمن من مطلق الرحمة .. فيرحم بالعذاب وبالعقاب كما تضرب ابنك المذنب رحمة له وتأديباً .

وهو الرحيم بالمعنى الخاص والخالص للرحمة فيمنحها خالصة لأحبابه .

وهو اللطيف أى الخفى الشديد الخفاء فى أ
فيخيل لك أنك أنت الذى تفعل ، ويخترع
الذى تخترع . لأنه أحال عليك الأ
وأعطاك المواد الخام وأعطاك العقل

والخشب وألهمك قوانين الطفو فاخترعت السفينة وهى فى الحقيقة من خلقه .

﴿ وله الجوارِ المنشآتَ فى البحر كالأعلام ﴾ .

(٢٤ - الرحمن)

﴿ وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ﴾ .

(٣٢ - إبراهيم)

ولكنه يعمل من وراء حجاب الأسباب فيخيل إليك أنك أنت الذى تعمل .

﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ .

وهو يفعل ذلك بلطف وخفاء واستسرار لا يدرك .

وبين كونك مخيراً وكونك مسيراً خيط دقيق كالشعرة لا يبين .

فأنت مخير فى النية والضمير والسريرة .. ثم هو فى الخارج يجرى عليك الأسباب والمقادير لتخرج ما تكتمه وتتلبس بحقيقتك .

﴿ والله مخرج ما كنتم تكتمون ﴾ . (٧٢ - البقرة)

وهذا غاية اللطف والخفاء .

فى هذا البحر الملىء بالخفايا يخوض الصوفية ولهذا تكثر بينهم المهالك ويضل منهم الكثير ويختلط على الواحد منهم الحال فى لحظة الوجد والجذب فيقول : « أنا الله » .

ولهذا نصح بعض الأئمة من المسلمين بتجنب طرق الصوفية .. وقالوا فى ذلك إن النبى الذى أمرنا جميعاً بأن نتخذ منه أسوة ، لم يعرف عنه حال الجذب ولا كان من أهل المواجيد ، ولم يذكر لنا التاريخ أنه راح مرة فى غيبوبة الحب هذه ولا كذلك عيسى ولا إبراهيم وهو الخليل الذى كان يكلمه الله كما يكلم الخليل خليله .. وحينما خر موسى صعقاً عندما طلب رؤية الله كان ذلك من الله تحذيراً وعقاباً لأن موسى طلب ما لا يجوز طلبه .

وهؤلاء هم الأنبياء أهل القدوة والأسوة والأتباع .

والمؤمن الصالح فى الإسلام هو رجل عامل وليس رجلا معتزلا متأملا فى الخلوات .. ولو كان أبو بكر وعمر صوفيين من طراز الحلاج لما قام للإسلام بنيان ولما ارتفعت له أركان شداد .

ويرد الغزالى على ذلك فيقول إن الصوفى بالفعل ليس هو النموذج العام الذى يطلب من المسلم اتباعه .. وعامة المسلمين غير مندوبين إلى الصوفية .. والصوفية فى النهاية هم خاصة الخاصة وقلة القلة من القادرين المؤهلين على الجهاد الأكبر بترويض النفس ومخالفة الهوى والسلوك فى بحار الغيوب واستطلاع الأعماق والأسرار .. وقد أراد الله أن تكون كثرة الناس من أهل الغفلة ليشتغلوا بعمارة الدنيا .. واستصفى القلة وقلة القلة لنفسه ..

والنبى عاش الصوفية والعزلة فى مرحلة غار حراء التى استمرت أكثر من أربع عشرة سنة .. وأقواله وأحاديثه تشهد على الجانب الصوفى فى شخصيته .

وبالمثل نجد هذا الجانب الصوفي واضحاً فى رجل مثل على بن أبى طالب .

ونجد عيسى يعتزل الناس فى خلوة تأمل مع نفسه يقضيها فى البرية قبل أن يعود فينزل للناس .

ونجد موسى فى خلوة الأربعين يومًا ينفذ مشيئة إلهية وشرطاً للتأهل والاستعداد ليصل إلى اللياقة والصلاحية الروحية لنزول الألواح عليه .

إن الجانب الصوفى كان دائماً جزءاً لا يتجزأ من النبوة وإنما اختلف الأنبياء عن غيرهم فى كمال شخصياتهم فجمعوا بين الفكر والعمل .. وبين العزلة عن الناس والنزول إلى الناس .

وهذا الكمال لا يتيسر للكثيرين .. وإنما نجد فى الكثرة طغيان جانب على جانب .. فنجد من تطغى على شخصيته خصائص العمل ومن تطغى على شخصيته خصائص العزلة والتأمل .

ووجود الصوفى المتأمل والكاتب كالغزالى وابن عطاء الله والجيلى ، لا يمنع قيام رجل الفعل والعمل والقيادة كعمر وأبى بكر وخالد بن الوليد .

وإنما هو التنوع الضرورى والطبيعى للشخصية الإنسانية كما تتنوع بصمات الأصابع .. ولا يحق لنا أن نصادر قيام نوع ونوجب قيام نوع .. بحجة أن هذا مع الإسلام وهذا ضده .. فإنها تكون مصادرة باطلة حتى من ناحية العقيدة .. فلم يخل القرآن من اللمحات الصوفية .. فهو فى أكثر من مكان يصف الدنيا بأنها لهو ولعب ، وأنها حصاد الغرور ، ويحضنا على الزهد فى بريقها .. وهى نظرة صوفية .

وهو فى عالم الشهادة لا يرى مشهوداً إلا الله وأفعاله ويقول لنا :

﴿ أينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .

.. ويأمرنا أن نشهد بأن لا إله إلا الله .. وبأن لا مشهود بحق سواه .. ولا موجود بحق سواه .. وهى نظرة صوفية .

ومن أسماء الله أنه .. « الحق » .. وما سواه باطل وهى نظرة صوفية .

الصوفية إذن فى جوهر الدين وليست ابتداعاً فى الدين .

ويصح أن نسميها درجة تخصص .. يحرص أصحابه على استصفاء الدين من مرتبة الطقوسية إلى مرتبة الحب ، فتكون العبادة عندهم حبًّا لا طقسًا .

وهم يبحثون عن الحقيقة لا لينقضوا بها الشريعة ليؤكدوها ويزيدوها تثبيتاً .. والصوفى الحق سلوكه عين

وإن هام قلبه مع الحقيقة .

ومع ذلك يجب أن تعترف أن الصوفى السالك يمكن أن يضل وتختلط عليه الأمور ويكون ضرره أكثر من نفعه .

والقائلون بأن أودية الصوفية هى أودية المهالك .. عندهم بعض الحق .. فالصوفى سالك فى بحار الغيب . وهو لهذا معرض لكل الأخطار ، وأهون هذه الأخطار . الغرق فى التيه .. والجذب .. وذهاب العقل .

ولكن الناجى الفائز فى هذه المسالك هو الناطق بالدرر المتحدث بالجوهر .

ونجد هذه الدرر والجواهر فى تراث الصوفية الذى خلفه لنا الأئمة العظام .. ولن نجد الواصل الحق منهم يقول : « أنا الله » .. بل يقول : « هو الله » .. فهذه نهاية المطاف فى رحلة الحج فى دروب الغيب .

« هو الله »

« هو »

كلمة « هو »

التى لا تعنى أكثر من مجرد إشارة إلى ما تعجز عنه جميع الألفاظ والعبارات .. وما لا تحيط به اللغات .

« هو » .

محض إشارة .

ثم تسكت الألسن .. وتجف الأقلام .. وترفع الصحف .. ثم لا تبقى إلا العينان تدمعان بما لا سبيل إلى التعبير عنه .

سبحانه وتعالى عما يصفون .

فهو لا يوصف .. وما وصف نفسه إلا تنزلا لتدركه أفهامنا .. وما أطلق على نفسه الأسماء إلا تنزلا منه لندعوه .

ولكنه فوق الأسماء والصفات .. فلا هو روح ولا هو جسد ولا هو مادة ولا هو صورة ولا هو معنى ولا هو فكرة ولا هو شىء .. ولا هو بمن يحل فى زمان ولا هو بمن يتحيز فى مكان ولا هو بمن يتحد أو يمتزج أو ينقسم أو يتعدد .. إنما هو غير كل هذا .

وهو متعال على كل ما نعرف .

وهو غيب الغيب .

وغاية ما يصل إليه العقل فى تصور الله هو .. البهت والحيرة .. والعجز ..

وذروة المعرفة هى العجز عن المعرفة لهذا الأمر الذى يملأ القلب ولا يجد له اللسان وصفاً ولا تعبيراً .

لا سبيل إليه إلا بالإشارة .

ولهذا حفل القرآن بالإشارات .. الم .. الر .. حم .. ن .. ص .. ق .. وذلك حينما تقطعت أنفاس العبارات عن بلوغ

مراميه .. فلم تبق إلا الإيماءة .. والحروف المرتجفة التى تشير إلى الإبهام .

« هو »

نهاية الرحلة التى يحج فيها العقل إلى الحقيقة . وهو إذ يبلغها .. لا يبقى له إلا أن يطوف عريان العقل خاشع القلب .. مسلم الحواس .. وقد أسلم الفعل للفاعل .. وأسلمت الإرادة للمريد .. وأسلمت القوة للقوى .. وأسلم الحول لمن لا حول ولا قوة إلا به .

ونسأل المنكرين ..

من هم هؤلاء الذين وصفهم القرآن بأنهم :

– يمشون على الأرض هونًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا ، والذين يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا .

– والذين قليلا من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون .

– والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض .

– والذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم .

– والذين إذا سمعوا آياته خروا إلى الأذقان سجداً وبُكيًّا .

– والذين يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

– والذين اقتحموا العقبة وفكروا الرقبة وأطعموا المسكين واليتيم فى يوم ذى مسغبة ويوم ذى متربة .

– والذين أينما تولوا فليس ثمة إلا وجه الله ما يرونه أمامهم .

– والذين يذكرون الله فى أنفسهم تضرعًا وخيفة ودون الجهر من القول فى الغدو والآصال ولا يغفلون مع الغافلين .

– والذين يصبرون أنفسهم مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا يعدون بأعينهم عنهم يريدون زينة الحياة الدنيا ولا يطيعون من أغفل الله قلوبهم عن ذكره .

– والذين لا يرون فى الدنيا إلا أنها لهو ولعب وتفاخر وتكاثر فى الأموال والأولاد وأنها مثل زرع أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاماً .

– والذين التزموا أمر القرآن ﴿ ففروا إلى الله إنى لكم منه نذير مبين ﴾ .

– والذين أخلصهم الله بخالصة ذكرى الدار ، والذين هم عنده لمن المصطفين الأخيار .

أليست كل هذه الصفات فى مجموعها هى ما ينطبق على الخلق الصوفى ، والمنهج الصوفى فى التجرد وإخلاص الوجه لله وتفريغ القلب من شواغل الدنيا وجمع الهمة فى الذكر ، وتعمير الوقت بالعبادة سجودًا وركوعًا وقيامًا وتهجدًا وبكاءً ودعاءً .

فلماذا لا يطيق بعض القوم ذكر التصوف والصوفية ويرون فيها بدعًا من الأمر .

وإذا تركنا اللفظة نفسها .. لفظة الصوفية .. أليس المضمون والمحتوى هو ذات المضمون والمحتوى الذى وصفه القرآن .

ولا نقصد بالصوفية فى كلامنا أهل الخرق والشعوذات والمتسولين الذين رفضوا الأخذ بالأسباب ، وغالوا فى الزهد وصاموا الدهر وانقطعوا عن النساء ، فتلك انحرافات نجدها فى كل مذهب وفى كل ملة وهى لا تدين المذهب ولكنها تدين أصحابها .. فالمشعوذون فى الطب ليسوا حجة على الطب ولكنهم حجة على أنفسهم .. ومازال الطب علماً محترمًا برغم أن بعض أهله انحرفوا واتخذوه تجارة وتدجيلا .. ولا خلاف أننا ضد المنحرفين من كل ملة وقد كتبنا وأفضنا فى انحرافات بعض لصوفيين ورفضناهم .

ولكن إذا قصرنا كلامنا عى المعنى المقصود من الصوفية كما علمناها من الكبار الكمل أمثال الشاذلى والرفاعى والنفرى وابن عطاء الله السكندرى وغيرهم من الأكابر من أهل المجاهدات .. فنحن فى صميم الإسلام لم نخرج عنه ، بل نحن فى القلب من العقيدة الإسلامية ونحن فى المرتبة العليا التى قال عنها الحديث إنها مرتبة الإحسان .. وذلك بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه . فإنه يراك .

ثم من هم أقدر الناس على تجسيد كلمة الشهادة : « أشهد أن لا إله إلا الله » .

من ترتفع عندهم العقيدة إلى درجة الشهود .. بل وحدة الشهود . فلا يرون إلا الله فى جميع ما يجرى حولهم من أحكام .

إن كلمة « أشهد » تكاد تخص الصوفية وتصنفهم وحدهم فإن عموم الناس يرددون كلمة « أشهد أن لا إله إلا الله » بمعنى « أقر أن لا إله إلا الله » .. ولكن « أشهد » فيها خصوص معنى أقوى من مجرد الإقرار المنطقى أو العقلى ، فهى شهود بالعين وبالقلب وذلك أمر لا يستطيع أن يباشره إلا صوفى بلغ فى إسلامه مرتبة الإحسان .. فهو يعبد الله كأنه يراه .. وتفطن فى كلمة الحديث .. « كأنه يراه » .. إنه يحكى عن « نوع شهود » .. فإن لم تكن تراه فإنه يراك .. وتلك هى المرتبة الأدنى التى يمكن أن يشترك فيها الكثرة الباقية من المسلمين المحسنين .

إن الصوفيين المخلصين قد استصفوا بالفعل من القرآن أعلى مراتبه وتنطبق عليهم الآية . .

﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾

ومن الواضح أن القرآن يشتمل على أوامر للعامة وأوامر للخاصة الذين يريدون القربى والزلفى .

للأولين يقول : اتقوا الله ما استطعتم .

وللآخرين يقول : اتقوا الله حق تقاته .

والصوفيون الكمل من أهل الله يختارون أحسن ما أنزل إليهم من الأمر ليكونوا أكثر قربى وزلفى ، وليكونوا أهل الله الذين هم أهله .. وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

هنا بالحق المجال الذى يستحق أن يتنافس فيه الناس ، وليس مكاسب الدنيا وعرضها الزائل .. فذلك هو المجال الشيطانى للتنافس .. وذلك هو التنافس السهل .. ولا يثمر إلا عرضاً زائلا .

أما التنافس الآخر على رضا الله والقرب منه فهو الذى يثمر نعيمًا باقيًا ورضواناً أكبر لا حد له ولا منتهى .

وهم أقرب ما يكونون إلى الملائكة .. الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

إن التراث الصوفى فى الإسلام ، خاصة التراث الصوفى السنى الملتزم ، القائم على الشريعة ، لا ينحرف بالإسلام .. ولكنه يؤكده ويشرحه .. وهو تتمة ومذكرة إيضاحية مهمة عن معنى الدين ، ومعنى الإسلام علمًا وعملا ومباشرة وقدوة .. وهو جدير منا بأن نقرأه ونتفهمه ونحققه ونستصفى أحسن ما فيه .. ففيه من الجواهر واللآلئ والمراجين ما لا يستطيع أن يبلغه إلا الغواصون الذين أفردهم الله وعلمهم كيف تكون ملاحة الأعماق ، واصطياد الحقائق .

الفردية والتفرد

عرفنا بصمة الأصبع كعلامة مميزة لشخصية صاحبها وعرفنا أنه منذ آدم لم تتشابه بصمتان حتى بين أبناء البطن الواحدة وحتى بين التوائم . واليوم نعرف أن للأسنان بصمة ، وكذلك للشفتين بصمة ، وللأذن بصمة وللصوت بصمة .. بل إن البروتين الذى تتكون منه خلايانا له فى كل منا بصمة والكرات البيضاء فى دمائنا هى الأخرى مدموغة ومبصومة بعلامات مميزة على سطحها بحيث يتميز كل واحد فينا بماركة وهوية مادية ينفرد بها .

وهذا التوكيد من الخالق على فردية كل واحد منا دليل على أصالة هذه الفردية وأنها غير قابلة للذوبان ولا يصح لها أن تذوب فى المجموع ، إلا إذا قرر صاحبها أن يضحى بها ويتنازل عنها ويذيبها فعلا فى مبدأ أو فى رسالة أو فى هدف شريف أو هدف غوغائى ، وإن هذه الفردية هى أمانتنا وأننا مسئولون عنها يوم

القيامة .. ولا عذر لمن يتعلل بالتبعية ولا حجة لمن يقول :

﴿ إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ .
(١٧٣ – الأعراف)

﴿ قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ . (٥٣ – الأنبياء)

﴿ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ﴾
(٢١ – لقمان)

﴿ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾
(٢٣ – الزخرف)

﴿ قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا ﴾
(١٠٤ – المائدة)

فكل هذه الحجج باطلة وكل هذه الأعذار لا تقبل لأن الله أفرد كل واحد فينا بإرادة حرة جعل لها علوًا على البيئة والظروف وعلى الجماعة لا يغلب هذه الإرادة الفردية غالب إلا إذا تنازل عنها صاحبها طوعاً واختار عدم الاختيار ، وآثر التقليد والتبعية وآثر أن يكون عجينة فى يد غيره يشكله كيف يشاء وحينئذ لا يحق له أن يقول : قهرنى فلان .. فحجة الله حينئذ .. بل أنت الذى أعطيت له نفسك .. وأنت الذى اخترت عدم الاختيار .. وأنت الذى فرطت فى الأمانة التى فى عنقك .. والأمانة فى فردانيتك وخصوصيتك التى فطرتك عليها ماديًا ونفسيًا وروحيًا .. فالسجن الذى قيد يديك ورجليك لم يكن

ليستطيع أن يطمس على قلبك أو يقيد نيتك ، فلماذا لم ترابط على الحق ولو بقلبك ولو فى خاصة سرك ، وقد أعطيتك سريرة لا يقدر عليها الحديد ولا النار ، ولا سلطان لشيطان عليها ولو كان من مردة الجن .. وقد قال الله للشيطان من قبل :

﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ﴾ .
(٦٥ – الاسراء) .

حينئذ تبطل حجة الكافرين وتخرس ألسنة المجرمين وتعترف الأيدى والأرجل على أصحابها ويظهر الحق ويزهق الباطل .

ويقول الله تعالى :

﴿ هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ﴾ . (١١٩ – المائدة)

وهذا منتهى التدليل والتشريف للصادقين أن يقال عنهم إنهم يرضون عن ربهم وهو سبحانه وتعالى منزه عن حكمنا عليه ، وهو مستحق للحمد والرضا فى كل ما يفعل ولا حاجة له فى رضانا ، ولكنها لفتة الحب للمؤمن الصادق فلا حجة إذن للتعلل بالمجتمع والبيئة والظروف والعائلة والقبيلة فقد أفرد الله كلا منا بعنصر شريف أصيل يستطيع أن يقف وحده أمام المجتمع والظروف والبيئة والعائلة ويستطيع أن يصنع قراره منفردًا حرًا .

ويؤكد الله تعالى هذه الفردية وبأنها مناط المحاسبة ، وبأننا

سوف نلتقى بالله أفراداً لا جماعات .

﴿ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً ﴾ . (٩٥ – مريم)

﴿ ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ﴾ . (٨٠ – مريم)

﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون ﴾ . (٩٤ – الأنعام)

﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا ﴾ . (١١ – المدثر)

إن هذا الموقف الهائل سيقفه كل منا وحده فرداً منفرداً أمام الله الفرد الصمد مصداقاً للوحدانية المطلقة فى المسئولية والوحدانية المطلقة فى الحكم .

﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ .

(١٦ – غافر)

فرد أمام فرد .. وفردانية كل منا حق بمثل ما أن فردانية الله حق وكل منا واحد صحيح لا يقبل القسمة .

وهذا توكيد من الله بأن النفس حقيقة مطلقة ، وليست مجرد وعاء للظروف الموضوعية كما تصور كارل ماركس فى فلسفته المادية ، وبأن لها علوا على الظروف وعلى البيئة المادية ، بعكس ما زعم فقهاء الماركسية الذين جعلوا للبيئة والظروف وللمجتمع علوا قهريًا على النفس وسلطة حاكمة عليها .

وتلك هى البراءة التى أعطاها الله للنفس والتوكيد المطلق بأنها من عنصر شريف لطيف وأن لها حاكمية على كل صنوف المادة .

وذلك مذهب العارفين وقانونهم .. أن اللطائف تحكم الكثائف .. ألا تحمل أعمدة مجال الجاذبية هيكل الكون كله ..

وما هى أعمدة المجال .. وما الجاذبية ..؟

ألم يخرج العقل الطاقة الذرية من القمقم وينسف بها الجبال ، وما العقل إلا هذا النور اللطيف الذى نرى على ضوئه كل شىء .

ألا يحكم الضمير الجسد .. وما الضمير .؟

ألا تدفع قوة البخار بقاطرة وعشرات العربات الحديدية من ألوف الأطنان .. وما البخار .؟

ألا تحرك الكهرباء الموتورات وتقوم بتشغيل المصانع وما الكهرباء . ؟

إنها جميعها لطائف تحكم الكثائف .. والنفس ألطفها جوهراً .. إنها الواحد الصحيح الذى تخرج منه كل الأعداد والكسور العشرية واللوغاريتمات ، وكل الحساب والجبر والهندسة .. وكذلك جاءت البشرية بأعدادها من النفس الأولى الكلية .

والنفس الكلية هى أول ما خلق الله :

﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ﴾ .
(١ - النساء)

إن أول ما خلق الأحد كان الواحد .. ومن الواحد جاءت جميع الأعداد :

﴿ خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ﴾ .

ولكن تظل حقيقة النفس لغزًا وتظل سرًّا مطلسماً ..

هل كان لنا خلق أول فى أحسن تقويم ، وكان لنفوسنا وجود سابق عند الله :

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ .
(٤ - ٥ - ٦ التين)

إن الله استثنى الصالحين فى الأجر فقط ، ولكن كان حكمهم كحكم الباقى فى النشأة .. لقد كانوا فى أحسن تقويم ثم ردوا إلى أسفل سافلين ، فهل ما نحن فيه الآن هو أسفل سافلين ..؟؟

اختلفت التفاسير والعلم عند الله ، ولكن تظل القضية الثابتة : إن النفس حقيقة الحقائق .. وأنها تنتقل فى الأحوال وأن الجسد يبلى ويموت .

فى حين هى لا تموت .. وأنها مناط التشريف ومناط الحساب ومناط المساءلة .. وأننا لم نخلق سدى :

﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ .
(١١٥ - المؤمنون)

﴿ أيحسب الإنسان أن يترك سدى ﴾ .
(٣٦ - القيامة) .

إن خلق كل شىء كان بالحق وللحق ، وإن الحياة خلقت لتستمر بعد الموت فى كيفيات لا نعلمها ، وإن الرواية لن تنتهى بالموت بل سوف تتعدد فصولا إلى مالا نهاية حيث تكون الغاية هى اللقاء بالله فى الإطلاق .

﴿ ياأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ﴾ .
(٦ - الانشقاق)

فالكدح سوف يتصل إلى ما لا نهاية عروجًا إلى الله فى المطلق ، وتلك هى الهجرة التى أرادها الله ، لجميع الأنفس وما أشرفها وما أعظمها من هجرة وما أهون المشقات ، وما أهون عثرات الطريق إذا كان الموعد الله وهل بعد الله غاية ..؟!

تبارك الذى ليس كمثله شىء .

الدين والعلم

ليس بإنسان من لم يتوقف لحظة فى أثناء عمره الطويل ليسأل نفسه .. ما الحكاية بالضبط .. من أنا ومن أكون ، ومن أين جئت وإلى أين أذهب ، وما مصيرى وما الحكمة من الألم ، وما الهدف من الوجود ، وعلام هذا اللهاث المجنون وآخر السعى موت وتراب ولا شىء .. إن الحياة دون إيمان ودون يقين بوجود إله عادل هى عبث صرف بلا معنى وبلا سند وبلا رصيد .. وهى عذاب بلا حكمة وألم بلا عوض ومغامرة بلا عائد ومشروع بلا ضمان .

والإنسان إذا خلت حياته من الله هو مشروع فاشل نهايته اليأس والانتحار . وإذا كانت الحياة استمرت ثلاثة آلاف مليون سنة فلأن الله فيها ومعها ومن ورائها ومن حولها يهديها ويدعمها ويساندها وينورها .. ووجوده سبحانه وتعالى ضرورة مطلقة

بدونها لا سبيل إلى فهم أى شىء ولا سبيل إلى استمرار أى شىء ، ليس فقط ضرورة عقلية أو ضرورة فلسفية ، بل ضرورة وجودية بحتة .

الإنسان والله والكون قضية واحدة لا يفهم أحدها إلا بالآخر ولا ينفصل طرف منها عن الآخر فالله يفارقنا بعلوه ، ولكنه فينا وأقرب إلينا من حبل الوريد . فأينما تولوا فثم وجه الله . وهو معكم أينما كنتم ما يكون من نجوى ثلاثة إلا وهو رابعهم بل هو الجمال فى كل جميل والقوة فى كل قوى والقدرة فى كل قادر وهو سبحانه نور السموات والأرض .

ويؤكد لنا الدين هذا الشعور دون تفلسف فيعطى المؤمن جرعة من الراحة والسكينة والطمأنينة تكفيه مدى عمره فلا يعود يسأل أو يتساءل وإنما ينطلق يسعى ويعمل جاهداً فى سبيل الخير والبر ، غير ناظر إلى مكافأة أو عوض لأن الله ذاته هو العوض ، وليس بعد الله شىء ، ثم هو يسعى دون خوف من مرض أو موت فهو يعلم أنه لا موت وإنما كدح إلى الله وسير فى المنازل وصعود فى معراج من التحولات لا يعلم كيف تكون فذلك غيب ولكن إيمانه يغنيه ويمتد به عبر الغيب وبطول الشهادة كلها .

والعلمانيون الذين يستنكرون علينا المزاوجة بين العلم والدين يأخذون علينا الكلام فى الدين بلغة العلم .. وهم يمشون فى

انشقاق على أنفسهم طول الوقت فهم يقسمون الحقيقة إلى أجزاء ويتصورون أن كل جزء له علبة خاصة .. فهذه علبة للدين وهذه علبه للعلم وينسون أن تشريح الحقيقة يقتلها لأنها بطبيعتها بسيطة وشاملة .. فالدين فى ذاته علم .. هو علم بالله والعلم بالله لا ينفصل عن العلم بمخلوقاته ، فالمعرفة بالصانع لا تنفصل عن المعرفة بصنعته .. بل إن كل معرفة منها تؤيد الأخرى وتعضدها ولا تناقضها أو تنفيها .. فالكون كله بما يتجلى فيه من وحدة القوانين ووحدة الخامة وانسجام الألوان والأشكال ، هو خير شاهد على وحدة الصانع .. والكون هو مجال لقدرات الله وأفعاله وصفاته ..

والتاريخ هو المشيئة الإلهية التى تتحقق شفريا فى الحوادث .. والتطور التكاملى فى الكون هو ذلك الكدح إلى الله صعداً مرتقى بعد مرتقى .. ونحن نرى الله فى كل شىء .. وليس ذنبنا أنهم لا يرون الله فى أى شىء .. وأن نظرتهم تقف عند حدود الميكروسكوب والتليسكوب وشاشة الرادار .. وأنهم يقسمون كل شىء إلى ألف جزء وجزء ثم يتيهون فى الأجزاء ولا يرون إلا الأجزاء .

والعلم تراث للجميع ولا يستطيع أحد أن يدعى ملكية العلم لنفسه ، ولا يوجد علم روسى ولا علم أمريكى ولا علم إنجليزى وحقائق العلوم ملكية مشتركة وهى موضوع استبصار

العالم والفيلسوف والمفكر ورجل الدين ، دون أن يتهم أحدهم بالتبعية لأحد .. فالتماس الحق من جميع سبله المتاحة هو أوجب واجبات العقل .

وعيب العلمانيين أنهم يختلقون تناقضاً بين العلم والدين ثم يعودون فيختلقون تناقضاً بين العقل والوجدان ويعيشون فى انشقاق دائم فى أنفسهم وعلى أنفسهم وذلك لبعدهم عن الرؤية الشمولية ولغرقهم فى الجزئيات ولو أن رؤيتهم ارتفعت عن الجزء والتحمت بالكل لذابت كل هذه التناقضات ولرأوا الانسجام الشامل فى كل شىء ولكانوا من الذين فهموا الآية .

فأينما تولوا فثم وجه الله .. إن الله واسع عليم .

فما كل هذا التلوين والتصنيف فى الأشكال فى هذا المتحف الكونى إلا تعبير عن السعة الإلهية والعلم الإلهى الذى أحاط بكل شىء فهم أينما تولوا فإنهم يقرءون كتاب الله ويستجلون آياته .. فليس ثمة إلا هو .. وما من الله بد .

يقول الله للعبد الصالح فى كتاب المواقف والمخاطبات للنفرى : «أنا فى عين كل ناظر» ومعنى ذلك أنه فى المشهد وفى الشاهد وذلك هو الوجود مطلقا فسبحان ربى الذى وسع كل شىء رحمة وعلماً . لو قرأت القرآن فأنت فى كلماته .. ولو قرأت كتاب الكون فأنت فى صنعته .. ولو قرأت فى العلوم الطبيعية فأنت فى قوانينه .. ولو قرأت التاريخ فأنت فى مشيئته .. ولو

قرأت فى الفنون فأنت فى تجليات اسمه « البديع والخالق والمصور » ولا مهرب لك منه .. أنى توجهت فأنت فى إحاطته ..

وأجدادنا فى صدر الإسلام فهموا الإسلام أحسن منا فكان الواحد منهم أمة ودائرة معارف كان ابن سينا عالماً وطبيباً وفيلسوفاً وشاعراً وحجة فى الرياضيات ومثله الرازى وابن رشد وابن الهيثم وغيرهم .. لم يكن الواحد منهم يضع الدين فى علبة ويضع العلم فى علبة ويقول لا أدخل هذا فى ذاك ولا أدخل ذاك فى هذا وإنما كان كل منهم عقلا شموليًّا ورؤية شمولية .. وكان كلما ازداد شمولا فى النظر ازداد قرباً وفهماً للدين والعلم على السواء ، حتى المفسر السلفى الذى يحتج به الخصوم لم يكن مغلقًا على المعلومة الدينية القرآنية بل كان يحاول أن يستخدم العلوم المتاحة فى عصره لفهم آيات القرآن الكريم .

حينما فسر السلف « وأرسلنا الرياح لواقح » بقولهم إنها الرياح تدفع السحب فتسقطها على الأرض مطراً ، فتلقحها وتخصبها كانوا يستعينون بالعلوم الطبيعية فى زمانهم ونحن اليوم حينما اتسعت معارفنا نقول هى الرياح تحمل حبوب اللقاح من زهرة إلى زهرة فتلقحها ، ثم حينما اتسعت معارفنا أكثر نقول هى الرياح تحمل ذرات التراب وتلقى بها فى السحب فتعمل كبذور تتجمع حولها القطيرات فهى كأنما تلقحها ، وهكذا كلما تقدم ركب العلم كشف لنا المزيد من مغاليق هذه الآية الكريمة .

إننا نسير على نفس الدرب خلفاً عن ...اف لم نأت بدعا من الأمر ، بل إن السلف كانوا أحياناً يغلون فى هذا التفسير العلمى ، فيقعون فى الخطأ ، فنرى الطبرى على ارتفاع قدمه فى التفسير يفسر الآية : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى » بأنها الدجاجة تخرج من البيضة والبيضة تخرج من الدجاجة ، وأنها الجنين يخرج من النطفة المنوية ، والنطفة المنوية تعود وتخرج من الرجل البالغ .. ونعرف الآن إن المثال العلمى الذى ضربه الطبرى مثال خاطئ .. فالبيضة والدجاجة هى حى يخرج من حى وكذلك النطفة هى حيوان منوى حى يخرج من حى .. ولكن الطبرى كان له عذره فهكذا كانت العلوم المتاحة زمانه .. ولقد اخطأ أرسطو خطأ أكبر حينما قال بتولد الديدان من الجبن القديم وخروج الحياة من تخمر المواد الميتة .. واليوم يعرف أصغر تلميذ فى أى مدرسة ابتدائية أن دود المش يخرج من بيضة ذبابة المش ، وأن التخمر يحدث بسبب ميكروب الخميرة ، وليس العكس .. هى أخطاء وقع فيها أكابر .. ولكنهم اجتهدوا فكان لهم أجر حتى على أخطائهم .

ولكن الخطأ الذى لا يغتفر أن يتوقف الاجتهاد وأن يجبن العلماء خوفاً من أن يقال إنهم أدخلوا البدع .. وأن يتقاذف الناس الاتهام بالتكفير .. وأن ينغلق رجل العلم على علبة العلم ، وأن ينغلق رجل الدين داخل قوقعة الدين ، وأن ينعدم

التواصل ، وأن ينحل التفكير إلى جزر منفصلة غير مترابطة ، وأن نفتقد الرؤية الشاملة ، وأن يختنق كل واحد فى تخصصه فذلك داية الانحدار والأفول والتخلف الحضارى .

الملك والملكوت .. وأنا

وصف الله نفسه بأنه الملك ، وبأن له ملكاً وملكوتاً وجنداً مجندة وملأ أعلى ، وأنه قد وكل إلى كل فرد من هذا الملأ الأعلى مهمة يقوم بها فجبريل الروح الأمين هو رسول الوحى ، وهو الواسطة بين الله وجميع أنبيائه ، وميكائيل مكلف بالأرزاق ، وإسرافيل نافخ الصور يوم تقوم الساعة وعزرائيل قابض الأرواح :

﴿ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ﴾ .
(السجدة - ١١)

ذلك ملك الموت .. وهم أكثر من ملك :

﴿ توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ . (الأنعام - ٦١)

ثم هناك الملائكة الحفظة :

﴿ إن كل نفس لما عليها حافظ ﴾ . (الطارق - ٤)

والملائكة الكاتبون :

﴿ وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون ﴾

(الانفطار ١٠ - ١١ - ١٢) .

والملائكة الصافون والملائكة المسبحون والملائكة الحافون بالعرش والملائكة العالون وملائكة التصريف .

ملك عظيم من فوق سبع سموات لا يتناهى .

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن .. لم لا يباشر الله جميع هذه الشئون بذاته مادامت بيده مقاليد كل شىء وإليه يرجع الأمر كله ؟ فلماذا لا يفعل بذاته وبدون وسائط ؟

وما الحاجة إلى كل هذا الملأ ؟ والجواب .. أنها سنة الله فى خلقه .. فهو يجرى الشفاء على يد جراح ، وكان فى قدرته أن يشفى بذاته وهو يجرى الأرزاق من باب تجارة أو من باب صناعة ، وكان فى قدرته أن يوصل المال إلى أصحابه مباشرة دون أسباب .. وهو يوصل إلينا العلم بوسائط الكليات والجامعات والمدارس بل هو يوصل العلم إلى أنبيائه عن طريق جبريل .. وكان بالإمكان أن يلقيه فى روعنا مباشرة .

حتى المعجزة الخارقة فإنه يجريها بواسطة فيقول عن الحمل الخارق لمريم :

﴿ فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ﴾

ويقول جبريل لمريم :

﴿ إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيًا ﴾

وهو أمر كان يمكن لله أن يفعله مباشرة .

تلك إذن سنته فى الدنيا .

وتلك أيضاً سنته فى الآخرة حيث يقيم على النار زبانية لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وحيث يقيم على أبواب الجنة ملائكة الرضوان .

حتى عرشه العظيم سبحانه يقول لنا القرآن إنه محمول يحمله ثمانية

﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ .

وهم يحملونه ولاشك بقوة الله ذاته فما ضرورتهم ..

والجواب لاضرورة سوى كرمه هو .. حيث شاء بكرمه أن يعطى صفاته الشافية للطبيب ، ويتجلى بأحكام اسمه العليم على المعلم ، ويتجلى باسمه الرزاق على التاجر ، وباسمه البديع على الفنان ، ويتكرم بقوته على حاملى عرشه ، فتلك كلها شواهد كرم منه لا شواهد حاجة إلينا .

ثم إن الوسائط أيضًا هى سنته .. فهو إذاً أراد أن يعالج الجبل سلط عليه وسائط مادية مثله لتشكيله سلط عليه الرياح والأمطار والسيول تنحته وتشكله ، أو سلط عليه كائناً ماديًا مثل الإنسان ينحت فيه الكهوف والسدود .. ولو أنه سبحانه تجلى على الجبل مباشرة لجعله دكا .

وحينما ظهر جبريل على صورته الحقيقية لمحمد عليه الصلاة والسلام خر مغشيًا عليه .

إن تفاوت المقامات بين الله وملائكته وبين ملائكته وخلقه من البشر وبين البشر وسائر صنوف المادة الجامدة استدعى وجود البرازخ والوسائط .. فلا يطيق الأسفل أن يتجلى عليه الأعلى مباشرة .

إننا نقذف نواة الذرة وهى شىء غير منظور بشىء آخر غير منظور وهى قذائف النيوترون فنتخذ وسائط من جنس ما نتعامل معه .. فنحاول الوصول إلى الشىء الخفى باتخاذ برزخ خفى .

وجبريل هو البرزخ بين الله وبين محمد عليه الصلاة والسلام ، وهو أيضاً البرزخ بين الله وبين جميع أنبيائه .. لأنه لا أحد من الأنبياء يطيق الحضرة الإلهية الذاتية مباشرة .. فإن تجلى هذه الحضرة يؤدى إلى سحق ومحق كل شىء .. تمامًا كما رأينا من حال الجبل الذى أصبح دكًا ، وموسى الذى خر صعقًا .

إننا بحكم طبيعتنا البشرية لا نحتمل أنوار الذات الإلهية فاستدعى التواصل بين الطبيعتين إلى اتخاذ البرازخ .

وكما أن جبريل هو البرزخ بين الله وبين محمد ، فكذلك محمد عليه الصلاة والسلام هو برزخنا الأعظم ، وهو وسيلتنا وواسطتنا وبابنا إلى الفهم عن الله .. لأننا بحكم طبيعتنا المحدودة لا نستطيع أن نصل إلى حضرة الإطلاق دون دليل .

إن الضرورة هنا كانت قيدًا علينا نحن ، فنحن الضعفاء والله هو القوى ونحن الفقراء إليه وهو سبحانه الغنى عنّا .

وكان تنزل الله بين البرازخ ليتواصل معنا كرمًا منه ولطفاً وإيناسًا .. لا حاجة منه إلينا فالله ليس فعالا بنا ، بل نحن الذين نفعل به ونحن الذين نرى به ونسمع به ونفهم به ونمشى به ونحيا به .. بل إنه هو هو الظاهر بوجهه فى كل شىء :

﴿ أينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .

فهو الملك ، وهو هو جميع القوى الفعالة فى المملكة وهو هو جميع ما فى هذه المملكة من حق وخير وجمال وعدل وكرم وحلم ورأفة ومودة ورحمة وسمع وبصر وعلم فتلك جميعًا اسماؤه تجلت بأحكامها على ما فى المملكة من خلائق .

فإذا سحب منا ربنا قيوميته عدنا عدما واختفى مسرح الوجود كله ولم يبق إلا نوره ، فهو الحضور المستمر أبدًا وأزلا وهو الظاهر ونحن الغيب .. وهو الوجود ونحن العدم .. وهو الحجة على نفسه وهو برهان وجوده ودليل ذاته .

من مبدأ القصة حينما كان الله ولا شىء معه إلى الآن حيث مازال على ما عليه كان .. لم يجد جديد .. فكل ما حدث كان تحصيل حاصل لما فى علمه .. ومازال هو على ما عليه كان فالقول بحاجة الله إلى جنوده ومملكته يعكس القضية ويقلبها .. تعالى ربنا عن ذلك علوًّا كبيرًا .. فلا شىء فعال فى ملكه وملكوته

سواء إنما هى ثياب ألبسها لنا ومواهب أعطاها لنا وأرزاق وزعها علينا ، بل إن لبسة الوجود ذاتها منه .. وليس لنا من ذواتنا إلا العدم .

بل اللغز الذى يحيرنى .. هو ذاتى نفسها أنا .. من أكون .

أما أحقية الله فى كل شىء فهى أظهر من أن تكون محل شك أو مساءلة .. وبالمثل وجوده وهيمنته وظهوره .

إنما أنا .. ذرة العدم .. التى هى نفسى ما أمرها .. وما خطبها وكيف تشخصت من الأزل .. وكيف جاء بها الله ومعها سرها وما تكتم ، ثم أوجدها ليخرج مكتومها وابتلاها بالشر والخير لتفصح عن سرها وتفشى مكنونها .

أنا ...؟

وهل لى هذه الأنا .. أم أنى استعرتها مع ما استعرت من الله .. فهى ثوب ضمن ما ألبسنى الله من ثياب .

ذلك هو السر الذى يحيرنى برغم أنه لا شىء أقرب إلىّ منها .. وهل هناك ماهو أقرب إلىّ من نفسى التى بين جنبى .. ومع ذلك فهى الطلسم .. والتيه .. والمحال .

ثم إن اللغز يصل إلى ذروة استسراره حينما نرى الله يأمر ملائكته بالسجود لهذه النفس التى تشخصت من عدم ويسخر لها ملكه وملكوته ويخضع لها الكون جميعه :

﴿ سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعًا منه ﴾ .

يقول الله للعبد الكامل فى كتاب المواقف والمخاطبات للنفرى : أنت منى .. أنت تلينى .. وكل شىء فى الوجود يأتى بعدك .. لا شىء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك .. فأنت أقوى من الأرض والسماء ، أقوى من الجنة والنار ، أقوى من الحروف والأسماء أقوى من كل مابدا فى دنيا وآخرة .

إذا تحققت بسرك تحققت بى .. أنا الذى منه كل شىء أنا الذى أبديت كل شىء .. أنا الذى هو أنا .

إلى هذه الذروة المذهلة من التشريف تصل هذه النقطة العدمية التى هى النفس الإنسانية . فيقول عنها رب العالمين :

أنت منى

أنت تلينى وكل شىء فى الوجود يأتى بعدك لا شىء يقدر عليك إذا عرفت مقامك ولزمت مقامك .

فأنت أقوى من الأرض والسماء ، أقوى من الجنة والنار أقوى من الحروف والأسماء .. أقوى من كل ما بدأ فى دنيا وآخرة ..

ويقول للعبد الكامل :

إذا تحققت بسرك تحققت بى .. أنا الذى منه كل شىء .

كيف يارب يتحقق الواحد منا بسره .

إذا عرف مقامه ولزم مقامه .

ليس فقط أن يبلغ مقام الكمال ، بل أيضًا يلزم هذا المقام فلا يحيد عنه .. وذلك هو غاية التمكين والتثبيت .

وذلك هو المعراج العظيم الذى لا يقدر عليه إلا آحاد ، بل إن الملك والملكوت ذاتها مجرد معارج لهذه النفس الكاملة والدنيا والآخرة منازلها وهى تسير إلى ربها وقد أقدرها الله على الدنيا .. وعلى تجاوزها كما أقدرها على الآخرة وعلى تجاوزها فى مراقى السير إليه تلك هى النفس الطلسم المطلسم .

وتلك هى إمكاناتها حيث اجتمع فيها أقصى العدم وأقصى الوجود .

وحيث هى منى أقرب إلىّ من كل شىء ، وأخفى علىّ من كل شىء .

وحيث يبلغ إبهامها بى إلى البهت والحيرة والذهول :

من أنا ..

ومن أكون ..

أنا الذى أسجد لى الله الملك والملكوت ، وسخر لى الكون أجمع .

أنا الذى أمرض وأشيخ وأموت ، ويفتك بى ميكروب لا يرى لفرط تفاهته .

أنا الذى جئت من قطرة ماء وأنتهى إلى جيفة .

إلهى كم تكذب المظاهر وكم تخفى جلودنا حقائق هائلة تحتها .

وكم تتشابه وجوهنا وتختلف منازلنا .. وكم يمشى فى الأسمال والخرق من هم فوق الثريا منزلة .

لهفى على ذلك اليوم الذى تهتك فيه الأستار ويعرف كل منا من يكون .

وترفع الحجب ويكشف الغطاء ويغدو البصر حديداً ويفاجأ كل منا من نفسه بما لا يعلم ..

ويعرف كل منا من يكون ..

ياله من يوم ..

ياله من يوم ..

عن التطـور

الكثير من رجال الدين لا يحتمل كلمة « تطور » ويرفض موضوع التطور برمته ، ظنًا منه أن التسليم بالتطور يستتبع الاعتراف بأن الإنسان جاء من سلالة القرود وهو فهم خاطئ .

ودارون نفسه لم يقل بأن الإنسان جاء من سلالة أى قرد من القرود التى نعرفها .. بل هو يجزم بأن جميع هذه القرود لن يتطور أحدها إلى إنسان ولو امتد الزمان إلى ملايين السنين أو إلى أحقاب وآباد .

وعلوم الوراثة والجينات هى الأخرى تنفى خروج الإنسان من قرد ، فالخريطة الكروموسومية للقرود مختلفة عن الخريطة الكروموسومية للإنسان بشكل ينفى خروج أحدهما من الآخر .

بل إن علوم التطور نفسها تقول إن كل جنس من الأجناس الموجودة هو نهاية عمياء وحارة سد بحيث لا يمكن أن يؤدى

جنس منها إلى جنس آخر .

وما يحدث فى حالة التهجين والتقليم والتطعيم بالجينات من فرد إلى فرد هو خروج نوعيات جديدة بالمرة .

والكلام على أن السلالة البشرية جاءت من حلقة مفقودة تشعبت منها الحياة إلى فرعين : فرع خرجت منه سلالة قردية وفرع آخر مختلف خرجت منه سلالة بشرية .. هذا الكلام هو نظرية ظنية يمكن أن نرفضها دون حاجة إلى رفض التطور من أساسه .

وعلميًا لا يمكن لأحد أن يرفض التطور من أساسه .. لأن الحقيقة الجوهرية فى التطور . وهى خروج السلالات من بعضها البعض وتنوعها بتكرار التزاوج وتكرار التوليف بين الأمشاج أو الجينات (المورثات) .. ثم ظهور طفرات جديدة فى السلالات بين وقت وآخر .. هذا الكلام هو كلام علمى ثابت بالتجربة وهو كلام موضوعى ومؤكد .. وليس كلاما ظنيا يقبل الطعن .

ثم إن تسلسل المخلوقات الحية فى الزمان الجيولوجى بشهادة الحفريات تؤكد ظهور الإنسان فى آخر السلسلة التى بدأت من ثلاثة آلاف مليون سنة صعودا من كائنات بسيطة وحيدة الخلية إلى عديدة الخلايا .. رخوية ثم قشرية ثم فقرية .. ترتقى هونًا مع الزمان درجة بعد درجة وتنوعاً بعد تنوع من بكتيريا إلى طحالب

إلى فطر إلى سرخسيات إلى زهريات فى المملكة النباتية ، ومن البروتوزوا إلى الإسفنج إلى الديدان إلى القشريات إلى العناكب إلى الحشرات إلى الأسماك إلى الضفادع إلى السلاحف إلى الطيور إلى الثدييات بأنواعها وأعلاها الشمبانزى .

وعمر الإنسان فى أرشيف الصخور الثابت هو حوالى المليون سنة زيادة أو نقصًا .

فى حين أن عمر أية حشرة يزيد على خمسمائة مليون سنة .. وعمر الطحالب ثلاثة آلاف مليون سنة ، وأول خلية طحلبية لها حفرية ثابتة مرسومة على الصخور منذ ثلاثة آلاف مليون سنة ...

وعالم التطور قد يكذب وقد يضل السبيل بحسن نية .. ولكن الصخور لا تكذب .. والجبال لا تضل السبيل لأنها تعمل بأمر الله وقوانينه دون تصرف .

ثم إن التكيف والتأقلم بين كل جنس حيوانى وبيئته ، وبين كل جنس نباتى وبيئته وتطور نفس عظام الأطراف لتصبح هى ذاتها أجنحة فى الطيور ، وزعانف فى الأسماك ، وسيقان فى الدواب ، ومجاديف غشائية فى الضفادع .. هى الأخرى حقيقة تشريحية .

ثم إن خروج الشرايين من القلب بخطة واحدة وعودتها بخريطة وريدية واحدة إلى الرئتين فى الأرنب والكلب والذئب

والفأر والفيل والحوت والحمامة والسلحفاة والقرد والإنسان ليست مصادفة .

ثم إن تخلف بقايا من الأعضاء المنقرضة بلا وظيفة فى كل مجموعة حيوانية فى أثناء ترقيها من عتبة إلى عتبة .. هى بصمات تشير إلى الماضى .

إن الكم العلمى الهائل من الشواهد لا يمكن كنسه بمجرد إشاحة باليد وبمجرد الرفض الساذج للموضوع كله .

وقد انقسم العلماء أمام هذه الشواهد المحيرة إلى مؤيد بدرجات للتطور ، وإلى رافض بدرجات ولكن الرفض الكامل بات مستحيلا لأنه ببساطة موقف غير علمى .

وخلق الإنسان بنشأة مستقلة غير مسبوقة بأجداد أو أسلاف حيوانيين لا تعنى أن كل فرد فى مجموعة الحيوانات والنباتات جاء بنشأة مستقلة .

إن النباتات الزهرية وحدها أمكن إحصاء خمسمائة ألف مصنف منها .. فهل معنى هذا أنه يلزم لكل صنف منها نشأة مستقلة .

وما الذى يدعونا إلى هذا التفكير المعقد إذا كانت هى بالفعل تندرج فى عائلات ، والكثير منها يقبل التهجين بين بعضها البعض .

إن المنطق البسيط سيقول بأنها تنوعات سلالية جاءت

بالتزاوج المستمر بين تواليف متعددة من الأمشاج والجينات انضافت لها عديد الصفات التى استجدت بالتكيف مع بيئات متغايرة ، وأنتجت هذا المتحف الباهر من النباتات .

وما يقال عن النبات يقال عن الحيوان .

وقد تصح النشأتان معاً .. النشأة المستقلة للبعض والنشأة التطورية السلالية التى يستنبط فيها البعض من البعض الآخر .. فتصح النظريتان دون مصادرة .

ثم إن التطوير والتحسين ليس فيه إنكار للخالق .

فإن تطوير كل شىء وتحسين كل شىء مرده إلى الله .. وقد قال بذلك دارون نفسه فى رده على الكنيسة .

والتحسين لا ينفى العناية الإلهية .. بل يؤكدها !

والترقى فى الزمان هو قانون الله وسنته لكى يكون للزمان حكمة ، ولكى يكون لجهاد الكائنات وجلادها مع الظروف ثمرة وغاية ومعنى ، فلم يحدث ما حدث لنقص أو عجز فى خطة الخالق تعالى ربنا عن ذلك علوًّا كبيرًا .. وإنما هو أمر مراد لحكمة .

وإذا كانت الكنيسة قد وقفت هذا الموقف من العلم لجمودها ولسيطرة الكهنوت فى فترة من الزمان على السياسة والفكر .. فإننا نقول .. ليس عندنا كهنوت ولا حجر من علماء الدين على العلم .. بل إن ديننا نفسه علم وهو يأمرنا بالعلم .. ويأمرنا بالنظر .. بل إنه يأمرنا بالنظر فى هذا الموضوع بالذات .. موضوع

كيفية بدأ الخلق :

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾

(العنكبوت - ٢٠)

ويعلم الله أننا سوف نختلف فى هذا الموضوع وسوف نضل ونخطئ ونصيب وسوف يطول بنا المشوار ، ربما إلى قيام الساعة .. ومع ذلك أمرنا .. فأمره واجب .. واختلافنا لا غبار عليه .. ولا يجوز أن يكفر أحدنا الآخر .. وإنما علينا أن نتعاون .. فى مودة .. ودونما تعصب لرأى .. فالقرآن نفسه حمال أوجه .. وآيات الخلق فى الكتاب من متشابه القرآن وليست من محكم القرآن لأنها تحمل أكثر من وجه من وجوه التفسير .. بل إن كلمة الأطوار جاءت بنصها فى إحدى الآيات :

﴿ ما لكم لا ترجون لله وقاراً . وقد خلقكم أطواراً ﴾

(١٣ - ١٤ : نوح)

وفى آية أخرى :

﴿ والله أنبتكم من الأرض نباتا ﴾

(نوح - ١٧)

وفى آية تكلم القرآن عن خلق الإنسان من طين ، وفى آية ثانية من سلالة من طين :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾

(المؤمنون - ١٢)

وفى آية تكلم القرآن عن حين من الدهر لم يكن للإنسان شأن يذكر :

﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ .

(الإنسان - ١)

والكلمة النهائية فى مراد هذه الآيات لا يستطيع أحد أن يدعيها فلا يعلم مراد الله إلا الله .. وإنما الكل يجتهد ويصيب ويخطئ .. فالباب مفتوح لكل صاحب علم .

كما أن الكلمة النهائية فى مشكلة أصل الإنسان من الناحية البيولوجية العلمية لا يستطيع أحد أن يدعيها فمازال الأمر رهن البحث والباب مفتوح للاجتهاد .

فلا داعى لافتعال معارك والتعصب لأى جانب دون الآخر بلا حجة أو برهان .

ثم إن القرآن لم يتكلم عن خلق الإنسان باعتباره عملا لحظيًا فوريًا ، وإنما يروى لنا أنه تم على مراحل :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرًا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ، فقعوا له ساجدين ﴾

(ص - ٧١ - ٧٢)

يقول ربنا جل وعلا : فإذا سويته ونفخت فيه من روحى .. فكيف كانت التسوية .. وكيف كان النفخ فى الروح .!

تلك مراحل .

وفى آية أخرى يؤكد هذه المراحل :

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾

(الأعراف - ١١)

خلقناكم ثم صورناكم .. تلك مراحل .. و « ثم » .. تقتضى زمناً إلهيا .. (واليوم عند الله بألف سنة مما تعدون ، وفى آية قرآنية أخرى بخمسين ألف سنة) . فهو إذن زمن مديد ، وأحقاب .

ثم إن الخلق والتصوير يأتى فى الآية سابقاً على آدم وعلى أمر الإسجاد له .. فأين كان .. إنه . لا يمكن أن يكون تصويراً جنينيًا فى الأرحام .. لأنه مذكور قبل آدم وقبل الذرية .. وقبل إسجاد الملائكة .. وآدم مازال وحيدًا ولا ذكر لحواء بعد لنقول إنه تصوير جنينى فى أرحام .

والآية بنصها من آيات الأسرار التى لا تفهم دون تأويل ..

وبالمثل كلمة « تسوية » :

﴿ الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك ﴾

(الانفطار ٧ - ٨)

لماذا يقول ربنا : « فعدلك » .. أكان به اعوجاج فنقله الله سبحانه وتعالى بالتسوية إلى حال الاعتدال .

إن فيها المعنى الواضح للترقية والتحسين على أحسن تقويم

ثم كيف نفهم التسوية ؟

إنها تحتمل التسوية المباشرة للطينة ، وتحتمل التسوية السلالية باستنباطها وتمريرها على مراحل حتى تبلغ غايتها وكمال اعتدالها .

إن الآيات تحمل وجوهًا كثيرة للفهم .

ولا نصادر رأى أحد .. ولا نجزم بشىء .. وقد نكون على خطأ فى فهمنا .

وإنما فقط ندعو إلى فتح الباب والاجتهاد وعدم التعصب وعدم رفض الثابت المؤكد من العلم .

وهم يقولون إن الله لا يمكن أن يخلق شيئًا ناقصًا .. ونسألهم نحن : فما بال الأجنة تولد مشوهة . وما بال المولودون عمياناً .. والمولودون بتخلف عقلى .. والمولودون بساق واحد أو شفة مشقوقة .. أو خرسًا أو صماً .

أليسوا من خلق الله ؟!

وما بالكم بالزاحفات الضخمة التى نعرفها باسم الدنياصورات وكان كل واحد منها بحجم العمارة يأتى عليها العصر الجليدى فلا تستطيع أن تتكيف وتموت وتنقرض .. فى حين تتكيف الحشرات وصغار الحيوانات ، وتعبر المحنة وتستمر !

أكان نقص هذه الكائنات وقصورها فشلا فى الخطة الإلهية .. تعالى ربنا عن ذلك علوًّا كبيرًا .. بل نصحح لهؤلاء ما فهموا

ونقول إن كل ما نرى حولنا من نقص ليس فشلا فى الخطة الإلهية بل إنه ضمن الخطة الإلهية .. وهو مراد ومقصود لحكمة .. فكل ما حدث هو من باب :

﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾
(يوسف - ١١١)

ومن باب :

﴿ أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴾
(يوسف - ١٠٩)

وأحيانًا ندرك الحكمة وأحياناً لا ندركها .. ولكن تظل صفحة الكون كله بما يجرى فيها كتاباً حافلا بالسير والعبر .. كتاباً يجريه الله أمامنا ليربينا ويعلمنا ويشرح لنا آيات إعجازه وحكمته .. وليقول لنا فى النهاية .. إن الأرض لله يورثها من يشاء ، وإن مقاليد الإحياء والإماتة بيده .. سبحانه لا يسأل عما يفعل .

ولكنا مكلفون مأمورون بالتفكر والتأمل والتدبر وإعمال النظر .. مأمورون بذلك وإن اختلفنا .. مأمورون وإن أخطأنا .

﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴾
(العنكبوت - ٢٠)

وما كتبت هذا الكلام إلا عملا بهذا التكليف ، فإن كنت أصبت فمن الله .. وإن كنت أخطأت فمن نفسى .

ونسأل الله الهداية .

بحث فى ألفاظ القرآن الكريم

صاحب هذا البحث هو الدكتور بهاء الدين وردى وهو فنان ..سلام بالإضافة إلى كونه طبيبًا وكانت له معارض كثيرة فى الغرب وباريس ومدريد ، وهو أيضًا دارس متعمق للهيروغليفية المصرية واللغة السومرية والحضارات السامية القديمة .. وبهذه ..ه الموسوعية الشمولية حاول أن يبحث فى الألفاظ ..رانية ....

.. يقف مثلا عند أسماء الله .. فيقول إن من أسمائه القديمة .. ..ل ، وإيل فى اللغة الآشورية البابلية تعنى حكومة .. وعرف ..ب هذا الاسم قبل الإسلام ، وجاء هذا الاسم فى القرآن ..ً فى أسماء الأنبياء والملائكة مثل .. إسماعيل وإسرائيل ..ائيل وجبرائيل وعزرائيل وإسرافيل .. كل اسم منها مضاف .. إيل .. وإسماعيل « بهذه الصفة » معناه السميع بالله .. وإسرائيل السائر إلى الله .. وهكذا .. بل إن فى اللغة الفرنسية الضمير « هو » ينطق أيضًا « إيل » ، ومعلوم أن الضمير « هو » من أسماء الله وفى التوراة ياهوه – أى ياهو .

أما « الرحمن » فقد جاء فى نصوص تدمر قبل الإسلام « رحمانا » وفى اللغة الإيرانية رحمن معناها السلام وفى اللغة الحيثية رامان ورامون إله الصواعق وفى اللغة الآشورية رحمان هو الإله البابلى وله معبد فى مدينة آشور وفى اللغة السنسكريتية الهندية « رهيم » تسبيحة يرددها الصوفى على مسبحته – وهى تقابل عندنا رحيم .

والفرق بين الرحمن والرحيم أن الرحمن يرحم ويؤدب بالعذاب .. يقول إبراهيم لأبيه :

﴿ يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ﴾ (مريم – ٤٥)

أما الرحيم فهو الاسم المعبر عن الرحمة الخالصة .

والله يجمع بين الاسمين والصفتين فهو رحمن الدنيا ورحيم الآخرة .

أما طه فقد ورد عن السامريين أنهم كانوا ينتظرون نبيًا اسمه طاهاب وعند الهنود الحمر طاهابو هى الشمس ومعناها عندهم « أبونا » .

أما يس .. فهى تعنى باللغة الحبشية .. يا إنسان .

أما فرعون ذو الأوتاد الذى جاء ذكره فى القرآن ، فقد فسرها الأقدمون بمعنى فرعون ذو الجنود .. وأن الأوتاد هى الجموع والجيوش الكثيرة .. ويقول المؤلف صاحب البحث : إن الآثار حفظت لنا صورًا كثيرة على الجدران لفراعنة يعذبون الأسرى بالأوتاد .. ويقول آخرون : إن الأوتاد هى الأهرام .. وربما كان أقرب التفسير إلى الحقيقة أن فرعون ذا الأوتاد .. هو فرعون ذو المسلات والمسلات هى أقرب ماتكون إلى الأوتاد .. ولقد كان رمسيس الثانى فرعون موسى أربع عشرة مسلة .. ولعله فرعون ذو الأوتاد بعينه .

أما هامان فهى تطلق لاسم الإله آمون أو هامون أو هامان .

وقد ورد اسم هامان ابن عم الفرعون خوفو وكان هامان وزيره وهو الذى كلفه خوفو ببناء الهرم الأكبر وقد عاش إلى حوالى العام ٢٥٨٠ قبل الميلاد .

وهناك هامان بن حاو، الذى كان فى زمن أخناتون وكان هو الآخر مهندسًا معماريًا وطبيبًا وفيلسوفًا .. ومن أقواله لأخناتون .. إذا كنت تريد أن تكون ملكًا .. إذا كنت تريد أن تحكم مصر ، فكن بناء واجعل فكرك يتحقق فى المعمار وخيالك ينطق فى الحجر ، وكان رمسيس الثانى فرعون موسى له أولاد عشرة يحملون اسم هامان .. وبعد وفاته اعتلى العرش من بعده منفتاح ثم خلف منفتاح على العرش هامان مسى .. وربما كانت

مسى هى تحريف موسى .. ولعل هذا الهامان الأخير الذى كان وزيرًا لمنفتاح ثم خلفه على الحكم هو هامان المذكور فى القرآن .. ويكون موسى قد هرب من مصر فى حكم رمسيس الثانى ثم عاد فى حكم منفتاح ويكون منفتاح هو الذى توجه بالأمر إلى وزيره :

﴿ ياهامان ابن لى صرحًا لعلى أبلغ الأسباب ﴾
(٣٦ - غافر)

ويمثل ما كان هامان مشتقًا من آمون .. فإن العزيز (عزيز مصر) هو الآخر مشتق من الإله إيزيس .

أما نون فيقول الزبيدى فى تاج العروس إن معناها دواة .

ونون فى الهيروغليفية معناها محيط الماء الأول الذى فيه كل عناصر الخلق .. وأول ما عبد المصريون من آلهة كان الإله نون وزوجته نونة ، ونون فى العقيدة المصرية هو الحوض الدائم للقوى الحيوية ، ونون بحر العلم والحكمة .

أما قوم عاد الذين ورد ذكرهم فى القرآن ، فيقول عنهم المؤلف : إن عادا باللغة الآشورية معناها البشر العقارب ، وهم أقوام أشداء ذوو بأس سكنوا جنوب الجزيرة العربية ثم انتشروا بالغزو شمالا وفتحوا الشام والعراق ووصلوا إلى الهند وأطراف مصر .

ويقول المؤلف : إنه مما يلفت النظر وجود آلهة هندية اسمها عاديات وعادى بودا وعادويتا وعادينات وأنه قرب كلكتا قبيلة

اسمها عادى وآسى تسكن التلال .

ويرى المؤلف أن إرم ذات العماد ليست اسما لمدينة ، بل هى اسم لقبيلة من قوم عاد يعود أصلها لبطون آرامية .. وأن عادا نفسها سلالة آرامية .. وجلعاد المذكورة فى التوراة هى قلاع عاد جلعاد .

والاصفهانى فى كتابه « تاريخ سنى الملوك » يقول : إن العرب العاربة عشرة : عاد وثمود وطسم وجديس وعماليق وعبيل وأميم ورهط وجاسم وقحطان . والنبط من البطون الآرامية المتأخرة وهم من بقايا عاد ومثلهم قبائل جرهم وأخبر ابن قطامى وابن الكلبى أن عادا كانت تتكلم العربية .

وقال أبو عمر أن لسان عاد وثمود وشعيب ومدين عربى كله .

وروى عن على بن أبى طالب قوله : إن جرهما من بقايا عاد وثقيفا من بقايا ثمود .

أما آلهة عاد فكانت العقرب والنسر والعجل والصقر وقد سموا أنفسهم البشر العقارب ويلفت المؤلف النظر إلى أسماء أماكن فى لبنان مثل جب عادين أو بئر عاد ومدينة عدلون قرب صور ونهر عادونيس .

ويقول ابن خلدون أن قوم عاد وصلوا مصر واحتلوا الدلتا وبنوا مدينة أون المذكورة فى التوراة .. وأنهم جاءوا مصر على

موجتين .. الموجة الأولى قبل الهكسوس والموجة الثانية مع الهكسوس ، ويستدل المؤلف على كلام ابن خلدون بأسماء مصرية مثل عادير ماشيد وهى قبيلة تسكن فى الدلتا على شفا الصحراء ومدينة عادحو التى جاء ذكرها فى البرديات .

تلك بعض وقفات مع الرحلة المثيرة التى قام بها ذلك الباحث .. الدكتور بهاء الدين وردى . مع ألفاظ القرآن الكريم ..

وهى إضافة جادة وعميقة إلى المكتبة القرآنية وملاحة استطلاعية فى بحر اللغات القديمة تكشف وجها جديدا من وجوه الإعجاز القرآنى هو الإعجاز التاريخى .

الصانع العظيم

هل سأل أحدكم نفسه عن كمية السباكة داخل جسمه .. مجموع المواسير داخل العمارة التى هى بدنه ، بما فيه من آلاف الوصلات والمجارى التى يجرى فيها الدم والبول والطعام والفضلات وعوادم التنفس والهضم .

هل يعلم أن طول مواسير الدم فى جسمه تبلغ وحدها ثمانية آلاف ميل أى أطول بكثير من المسافة بين القاهرة والخرطوم .. مواسير أكثر ليونة من الكاوتشوك ، وأكثر متانة من الحديد ، وأطول عمراً من الصلب الكروم ، وفى بعضها صمامات لاتسمح بالسير إلا فى اتجاه واحد .

ثم مواسير الهواء ابتداء من فتحة الأنف إلى الحلق إلى القصبة الهوائية إلى الشعب ثم الشعيبات التى تتفرع وتتفرع وتنقسم حتى تصل إلى أكثر من مليون غرفة هوائية فى الرئتين .

ثم مواسير البول التى تجمع البول من الكليتين لتصب فى الحوض ثم الحالب ثم المثانة ثم قناة الصرف النهائية .

ثم مواسير الطعام من الفم إلى البلعوم إلى المعدة إلى الاثنا عشر إلى الأمعاء الدقيقة .

ثم مواسير الفضلات من المصران الصاعد إلى المستعرض إلى الهابط إلى المستقيم إلى الشرج .

ثم ممرات الولادة وغرفها ودهاليزها وأنابيبها .

ثم مجارى المرارة وحوصلتها ومواسيرها .

ثم مجارى الليمف .. ومواقف الليمف ومحطاته فى الغدد الليمفية .

وهى مواسير تمر إلى جوارها الفضلات وتحميها شبكة من الأوعية الدموية والأعصاب ، وجيوش من خلايا المقاومة تلتهم أى ميكروب يمكن أن يتسرب من هذه المواسير فى طريق خاطئ إلى الجسم .

وأنابيب العرق .. وبلايين منها تشق الجلد وتفتح على سطحه لترطبه وتبرده بالعرق .

وأنابيب الدموع داخل حدقة العين تغسل العين وتجلوها .

وأنابيب التشحيم داخل جفن العين تفرز المواد الزيتية لتعطى العين تلك اللمعة الساحرة .

هذا الكم الهائل من السباكة الفنية الدقيقة المعجزة التى تعيش

مائة سنة ولا تتلف .. وإذا أصابها التلف أصلحت نفسها بنفسها .

نموذج من الهندسة الإلهية العظيمة التى أهداها الله للإنسان منحة مجانية منذ ميلاده وتولى صيانتها برحمته وعنايته .

فهل أدركنا هذه النعمة وهل قدرناها حق قدرها .

وكثير من الأمراض سببها أعطال وتلفيات فى هذه السباكة .

الإسهال والإمساك والغازات وتطبل البطن ، هى أعطال وتلفيات فى أنابيب صرف الفضلات والزكام انسداد فى منافذ الهواء داخل الأنف .

والناسور هو ثقب فى ماسورة الإخراج .

واحتباس البول والمغص الكلوى وآلام الكلى سببها أعطال فى أنابيب صرف البول .

إن تركيبات « الصحى » فى جسمك هى التى تصنع لك صحتك بالفعل .. بل هى صحتك ذاتها .. إن أى انقباض فى ماسورة معوية يساوى صرخة مغص ، وأى ضيق فى شريان القلب التاجى يساوى ذبحه ، وأى ضيق فى ممرات الولادة يساوى إجهاضا وأى انسداد فى قنوات فالوب يساوى عقمًا وأى انسداد فى مجارى المرارة يساوى صفراء .

هذا غير مجارى الليمف والدم والغدد ، وهى تتنوع فى الجسم بالآلاف ، ولكل غدة توصيلاتها وقنواتها ونظامها ودورها فى صناعة الصحة التى نتمتع بها دون أن ندرى أنها عملية تركيبية معقدة تشترك فيها مئات الأجهزة .

إن الصحة التى نشعر أنها مجرد استطراد لأمر عادى واقع .. ليست بالمرة أمرًا عاديًا وليست مجرد واقع مألوف ، وإنما هى نتيجة تدبير محكم وثمرة عمليات معقدة مرسومة بعناية وقصد ؛ وإنما يحدث المرض حينما تتخلف هذه العناية وهى قلما تتخلف .. فإذا تخلفت فلتتشرح لنا أسرارها .. فما عرفنا معجزة الصحة إلا بدراسة المرض ، وما عرفنا معجزة الحياة إلا بالموت .. وبأضدادها عرفت الأشياء .

وفى محاولاتنا البدائية فى بيوتنا وعمارتنا التى نبنيها وهى مجرد ماكينات رمزية صغيرة لاتصل إلى واحد فى المليون من العمارة البشرية .. غرقنا فى « شبرميه » .. طفحت مجارى القاهرة ، وتلوث البحر بعوادم المصانع ، واختنق النيل بالفضلات التى تلقى فيه ، ووقفنا أمام السيفون التالف ننادى على سباك ، واختلط الساخن بالبارد والطاهر بالنجس ، وفشلنا فى صناعة أصغر ماكيت سباكة لاتزيد مواسيره عن بضعة أمتار ، وغرقنا فى بانيو نصف متر .. وهذه صناعتنا ، وتلك صناعته .

وهذه سباكتنا وتلك سباكته .

وهذه عمارتنا .. وتلك عمارته

وهذا خلقنا .. وذاك خلقه .

.. الله أحسن الخالقين .
.. حدانا الله بصنعته المبهرة وآياته الخالدة فى عمارة
.. الكبرى :
.. لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا
.. يأتون بمثله ﴾ .
.. ينسحب على كل آية من آيات الله .. فى الكتاب ..
.. الآفاق .. أو فى أنفسكم .
.. كبرى المعجزات .

عالم الوحشة « والغربة »

ماهو أكثر شىء يسعدك فى هذه الدنيا ..؟

المال .. الجاه .. النساء .. الحب .. الشهرة .. السلطة .. تصفيق الآخرين .

إذا كنت جعلت سعادتك فى هذه الأشياء فقد استودعت قلبك الأيدى التى تخون وتغدر وأتمنت عليها الشفاة التى تنافق وتتلون .

إذا جعلت من المال مصدر سعادتك فقد جعلتها فى مالايدوم فالمال ينفد وبورصة الذهب والدولار لاتثبت على حال .

وإذا جعلت سعادتك فى الجاه والسلطان .. فالسلطان كما علمنا التاريخ كالأسد أنت اليوم راكبه وغدًا أنت مأكوله .

وإذا جعلت سعادتك فى تصفيق الآخرين فالآخرين يغيرون آراءهم كل يوم .

لقد وضعت كل رصيدك فى بنك القلق وألقيت بنفسك إلى عالم الوحشة والغربة واستضفت راحة بالك على الأرصفة .. ونزلت فى فنادق قطاع الطرق .. ولن يهدأ لك بال ولن تعرف طعم الراحة ولن تعرف أمنًا ولا أمانًا ، ولن تذوق للطمأنينة طعمًا ، حتى آخر يوم فى حياتك ، لأنك أعطيت أثمن ماتملك .. أعطيت روحك لعالم الفرقة والشتات ، ورهنت همك واهتمامك بعائد اللحظة ، وعلقت قلبك بكل ماهو عابر زائل متقلب ، وأسلمت وجدانك لينهشه وحش الوقت .

وإذا جعلت سعادتك فى حب امرأة .. فأين هى المرأة التى لم تتغير ؟ وأين هو القلب الذى لم يتقلب ؟ أين نجد هذا القلب إلا فى الخيال فى دواوين الشعراء الذين يقولون مالا يفعلون والذين هم فى كل واد يهيمون .

سبعون ألف نبى فى تقدير بعض العارفين عبروا هذه الأرض وعلموا أقوامهم نفس الشىء وأعادوا عليهم نفس الدرس ورددوا نفس الكلمات .

والناس مازالوا على حالهم لايرى الواحد منهم أبعد من أنفه .

مازالوا على جاهليتهم الأولى يتدافعون بالمناكب على نفس الأنس يرون حاصد الموت يحصد الرقاب من حولهم ولا يعتبرون .

بل هم اليوم أكثر نهما وأكثر تهالكا وأكثر تهافتًا على اللاشىء ويقول لهم القرآن :

﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

وفى أنفسهم وأقرب إليهم من حبل الوريد ، غاية الغايات ومنتهى الأرب ، وقبلة المقاصد ومهوى الأفئدة ومتعلق جميع المعارف .. الحق بذاته .. الله سبحانه وتعالى بنوره الأقدس .

الرحاب الأبهى وشميم الجنة ورفيف الملائكة فى نفوسهم .. أقرب إليهم من حبلْ الوريد .. أقرب إلى الواحد منهم من نطقه .

يقول الله للعارف الربانى :

ليس بينى وبينك بين .

إلى هذا المدى من القرب .. وإلى هذا المدى من اللطف .. يبلغ إيناس الرب لعبده .. ولا غرابة .. ألا تصير النفس الإنسانية قابلة لتجليات الأسماء الإلهية فيصبح الواحد منا رءوفًا رحيمًا ودودًا كريمًا حليمًا عفوًّا سميعًا بصيرًا عليمًا .

إلى هذا المدى يستوى الرحمن على عرش سماواتنا الداخلية ، ويكاشفنا بأنه أقرب إلينا من حبل الوريد .. وهو من هو .. جامع الكمالات على إطلاقها .. ثم نتولى عنه معرضين نتدافع بالأكتاف ونتسابق بالمناكب خلف كل زائل وتافه .

ونتكلم عن الحب .. وفى عمق نفوسنا من هو أولى بالحب كل

الحب .. بل واهب الحب لكل محب ومحبوب وسر الحب فى كل محب ومحبوب .. بل عين القيمة فى كل ماهو قيم .. وعين الجمال فى كل جميل .

ونتولى معرضين نجرى خلف بريق اللحظات ونتشتت ونتوزع ونتجاذبنا الغوايات ونتمزق إلى شتات ونغوت فى وحشة وغربة ومحصولنا مما جمعناه صفر .

والله أقام شريعته غيرة علينا وعلى ماأودع فينا من روحه ورحمة بنا حتى لانضيع ، والشيطان يحاول أن يحجبنا عن هذا الثراء الداخلى حسدًا وحقدًا على مافضلنا الله به .. ونحن نختار صحبة العدو على الصديق .. ونستمع إلى العدو ولا نلتفت إلى الصديق ، ونلازم العدو ونهجر الصديق .

وما أكثر ماقتل الأقوام من أنبيائهم وأهل الغفلة من شهدائهم .

وعالمنا اليوم أشد فى جاهليته وأعتى فى ماديته من كل مامضى من عوالم ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ .

فى داخلنا الشاطىء والمرساة وبر الأمان .

سند الضمان فينا ولسنا فى حاجة إلى التأمين على حياتنا فى بنك خارجى لا داعى لكل هذا اللهاث المجنون على الجمع والتملك والاكتناز .. فلن نزداد بذلك أمنا .

لاداعى لكل هذا السباق والقتل على السلطة فلن نزداد بذلك قوة .

أطمئن قلبًا أيها المؤمن وأعرض عن هذه الغابة التى يتعارك فيها الكل بالمخلب والناب ، قل كلمتك والزم معرفتك واعمل على شاكلتك ، وخض البحر فلن تبتل واعبر أرض الغربة والوحشة فلن تستوحش فلست وحدك فالله معك .. وأينما كنت فهو معك .

لاتقف مع الواقفين أمام فاترينة المال والجاه والنساء الباهرات والحب والشهوة والسلطة وسائر غوايات الدنيا .

فأنت غنى بما فى داخلك عن كل هذا .

لا يكن مبلغ همك أن تحب هذه وتلك ، وإنما ليكن همك مجموعًا على الله إلهك ، محبوبًا لك مطلقًا ودائمًا وأبدًا .

وحسبك من المرأة التى تختارها المودة والرحمة وحسن المعاشرة ،

تعلق القلب لايصح إلا لواحد ، وانشغال الهمة لايجوز إلا لواحد هو الله وحده جامع الكمالات .

إنما جعل عرش القلب ليستوى الرب عليه وحده وليس لهذه المرأة أوتلك .. الصبابة لاتليق بالعارف الكامل .. وبهو الملك حق للملك وحده وليس لأى عابر سبيل ، والله هو أغنى الشركاء عن الشرك .. وحق على من عرفه حق معرفته ألا يعبد غيره .

ألست تقطعه فيصلك ، وتكفره فيرزقك ، وتعصيه فيغفر لك ، وتهجره فيتودد إليك .. وهو من هو المتعال ذو الجلال والجمال .. فأين هو من هذه وتلك .. ألا يكفيك أن بابه مفتوح أبدا وعفوه مناد عليك دائمًا ؟

ألا يحرك ذلك كوامن الشوق فيك ؟

ألا يثير فيك من الوجد مالاتثيره هذه وتلك من أشباح ترابية فانية ؟

ألا تعود فتنظر حولك ببصيرة .. وتنظر فى داخلك بإلهام .. قبل أن يجرفك التيار إلى عالم الوحشة وإلى البحر الطام الذى يتخبطه الشيطان من المس ؟

ألا تغريك هذه الكلمات بلحظة تأمل وبوقفة مع النفس تعيد فيها النظر .

الفجوة بيننا وبينهم

هو .. دكتوراه فى الكيمياء من جامعة أسيوط .. يحمل معه جلافة الريف وبساطته وطيبته وهى خريجة آداب قسم سياحة تحمل معها حقيبة كريستيان ديور وتنظر دائمًا غربًا إلى باريس لتأخذ عاداتها وقيمها وموضاتها .. فى حين هو ينظر شرقا إلى مكة معلق القلب والفؤاد بالكتب القديمة الصفراء والمدائح النبوية وحلقات الذكر فى سيدى أبو العباس .

وهو فى زيارة للسويد والنرويج مدعوًا فى مؤتمر علمى ..

وهو يصحب زوجته فى شهر عسل ..

وهما يهبطان معًا درجات الفندق الفخم فى ستكهولم .. وكلما مر بهم نزيل أومأ برأسه فى تحية .. فتضغط على ذراعه هامسة .

– رد على التحية بإيماءة برأسك أنت الآخر .. أترى كم هم مؤدبون .. تعلم .. إذا حييتم بتحية فردوا بأحسن منها ..

أترى النظافة حولك ، كل شيء حولك يلمع .. والأرض كأنها مرآة .. المواعيد بالدقيقة والثانية .. الكلمة واحدة كأنها ميثاق .. لاغش ولا احتيال ولا مكر ولا تعقيد .. المرأة هنا حرة رشيدة مستقلة الإرادة ، تملك مفتاح عربتها ومفتاح شقتها وتخوض الحياة بلا خوف وتختار زوجها فى حرية .. وتعمل فى أى مهنة تحب .. حارسها ضميرها وحدة .. يدها مع يد زوجها على دفة القيادة .. لا رياسة لأحد على الآخر ولاتحكم ولا استبداد .. لها نصف مايملك إذا افترقا .. هكذا يضمنون للمرأة مستقبلها هنا ويؤمنونها من غوائل الدهر وطغيان الرجل .. دستور الزوجية احترام متبادل ومساواة فى الحقوق وثقة وحرية من كل طرف فى الآخر ولاتدخل ولافضول .. ولا مساءلة .. ولا محاكمة .. أين كنت بالأمس .. ولماذا جئت متأخرة ؟ تذكرة طائرتها فى جيبها وجواز سفرها فى حقيبتها .. تسافر إلى آخر الدنيا وحدها .. حرة .. رشيدة مستقلة .. حارسها ضميرها وهذا يكفى .. انظر حولك وتعلم .. هذه هى القيم التى تحتاجها فى مصر .. لنصنع مصرًا جديدة وحضارة جديدة ومدنية جديدة هذه فرصتك لتغتسل من أتربه الريف وتجدد شباب عقلك .. وتتشرب هذه القيم العصرية .. لا أحب أن أصادر على تفكيرك .. ولكنى أطالبك فقط بإعادة النظر وعدم الرفض الفورى لأى جديد .. لا أحبك أن تشيح بيدك وتقول كلمتك التقليدية .. هذه دولة

الكفر .. فأين الكفر فيما ترى .. هل النظافة كفر .. هل الأمانة كفر .. هل الوفاء بالوعد كفر .. هل النظام كفر .. هل العلم المتقدم كفر .. هل الصناعة كفر ؟

ومرت امرأة بيدها كلب وأومأت برأسها فى تحية فرد صاحبنا بإيماءة أخرى من رأسه.. فضغطت صاحبتنا على يده فى حب وقالت وهى تلفت نظره إلى الكلب .

– أترى أصابع الكوافير كيف صففت شعر هذا الكلب .. والفيونكة الحمراء الجميلة .. هل العطف على الحيوان الضعيف كفر .. هل رأيت المستشفى الأنيق أمام الفندق .. إنه مستشفى للكلاب ودار حضانة للكلاب تترك المرأة كلبها فى الصباح ثم تعود لتأخذه فى المساء .

قال الرجل الريفى وهو يهز رأسه غير مصدق .

– شيء عجيب .

– هل تعلم أن هناك أكثر من عشرين صنف لحوم معلبة للكلاب .. وأن المحل يترك لك الحرية لتعرضها على كلبك ليجربها ويختار منها مايحب .

قال الرجل الريفى وهو مازال يهز رأسه .

– شيء عجيب .. إذا كانوا يصنعون هذا بالكلاب فماذا يصنعون لبنى آدم .

– سوف ترى ياعزيزى .. لا تتعجل .

– إذا كان هذا مقام الكلب فى الأسرة .. فماذا يكون مقام الأسرة فى المجتمع .

– سوف ترى بنفسك الليلة .. ألسنا مدعوون معًا إلى تلك العائلة السويدية ؟

– نعم .. نعم .. لقد دعانا الدكتور كرافت على فنجان شاى لنحدثه عن مصر وعن أخبار مصر .. فهو عالم فى المصريات كما تعرفين .

– بل نريده أن يحدثنا هو عن بلاده .. وعن المعجزة الأوربية .

– نعم .. صدقت .

* * *

وفى المساء كان الدكتور كرفت يمد يده ليصافحها فى حرارة وهو يقول :

– أخيرا جاءت مصر إلينا .. أخيرا أصافح أحفاد حتشبسوت وأخناتون يدا بيد .

قال الرجل الريفى :

– لاأظن فقد اختلطت الأنساب كثيرا فى بلادنا ياعزيزى الدكتور بقدر ماتعاقب عليها من فرس وروم ومقدونيين وهكسوس وعرب وإنجليز وفرنسيين .. لا أظنك اليوم تجد حفيدًا واحدًا حقيقيًا لحتشبسوت أو أخناتون .. لن تجد هذا

الحفيد إلا فى مقابر تل العمارنة فى تابوت سرق كل مافيه .. ولم تبق إلا الجثة ..

قال الرجل وهو يتنهد آسفًا .

– صحيح .. هذا مؤسف .. لم يبق لنا إلا تاريخ ومعابد وبرديات هيروغليفية .

ورشف الدكتور كرافت رشفة هادئة من فنجان الشاى .

– لو كنتما هنا أمس الأحد .. لسعد أبواى بكما كثيرًا .. فهما مثلى يحبان مصر كثيرا ويتنسمان أخبارها .

قال الرجل الريفى .

– وأين هما ياترى ؟

– هما عجوزان لطيفان .. وهما فى هذه السن التى يصعب فيها التفاهم والتواصل بينهما وبين باقى الأسرة وحتى بينهما وبين بعضهما .. ولهذا انتهى بهما المطاف إلى دار للمسنين .. لكل منهما غرفة منفصلة وكل منهما يقطع النهار فى حل الكلمات المتقاطعة وشرب النبيذ والاستماع إلى التلفزيون ومشاهدته .. وهذا شأن الكبار هنا حينما يتقدم بهم السن .

قال الرجل الريفى فى استغراب .

– والصغار .

– بعد السابعة عشرة يذهب كل واحد وشأنه .. لى ثلاثة إخوة وأختا رابعة تفرقوا فى القارات الخمسة وتفرقت بهم

المصانر .. الأخ الأكبر تزوج من امرأة بوذية فى كمبوديا ، والأصغر قطعت ساقه فى حادث وهو يعمل بارمان فى كلكتا ، والأخ الأوسط يشتغل فى مصنع سلاح فى جنوب أفريقيا .. أما الأخت فقد تزوجت من فيتنامى ولم تنجب .. ثم افترقت عن زوجها .. وأنجبت ولدًا تكرس له الآن كل وقتها وتعمل مدرسة بيانو .

– وزوجها .

– إنها لم تتزوج بعد الفيتنامى .. لقد أنجبت ولدًا بعد قصة حب ، وكما تعلم هذه الفورات العاطفية تنتهى إلى لا لاشىء وتبدأ المشاكل .. وهذه مسائل عادية تحدث الآن كثيرا .

– ألا تلتقون ؟

– عبر بطاقات الكرسماس وهدايا عيد الميلاد كل عام .

ودخل الكلب وكانت حول بطنه ضمادة .

واحتضنه الدكتور كرافت فى حنان بالغ .. وراح يربت على رأسه ويقبله .

– المسكين .. عملنا له بالأمس رسم قلب كهربائى وفحص بالأشعة وبالأمواج الفوق الصوتية واتضح أن عنده ورم سرطانى .. وقام الجراح منذ أسبوع باستئصال الورم بنجاح .. صدقنى لقد حزنت من أجله كثيرا .. ولم أذق طعم النوم منذ أيام ..

قال الرجل الريفى وهو يقلب كفيه فى عجب .

– هذا شىء مؤسف فعلا .. هذا قدره .

وراح الدكتور يسأل صاحبنا ماذا يعنى بكلمة القدر .. وقال إنه سمع الشرقيين يتحدثون كثيرًا عن القدر .. ويلاحظ أنهم يدسون هذه الكلمة فى كل شىء .. وهذا أنت تدسها حتى فى شئون الكلاب .. صدقنى أنا لاأفهم .

وأخذ الرجل الريفى يتكلم فى إسهاب عن الإيمان بالله وبالقدر .. وأن الله بيده ناصية كل الخلق وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها .. سواء كانت بهيمة أو كلبا أو حشرة .. وأنه مامن ورقة تسقط إلا يعلمها .. وما من رطب ولايابس إلا عنده فى كتاب .

وقال الدكتور شاخت فى براءة « شديدة » .

– ولكن أين هو ؟

– من ؟

– الله الذى تقول .

فسكت الرجل الريفى وانعقد لسانه دهشة من السؤال الفجائى ، ثم عاد يقول ببطء

– الله لايقال عنه متى ولاأين .. لأنه هو الذى خلق المتى والأين .. هو الذى خلق الزمان والمكان ولايخضع لهما كما نخضع .. هو فوق الأين .

فبدا على الدكتور شاخت أنه لايفهم ، ولكنه قال فى احترام شديد :

– ألا يمكن أن تتكلم كلامًا أكثر وضوحًا وواقعية .. ألا يمكن أن تقول لى عن الله شيئًا ملموسًا .. صدقنى أنى فى دهشة من إيمانكم العميق أيها المصريون .. إيمان بطول سبعة آلاف سنة .. إنه شىء عجيب يدهشنى .. منذ سبعة آلاف سنة وأنتم تبنون للموت ولاتعيشون للحياة ، ولكن لما بعد الحياة .. وكأنما ، أنتم متأكدون تماما من كل شىء ألا يدهشك هذا .. من أين لكم بهذا اليقين بأن بعد الموت شىء .. لكم أتمنى أن أرى الله كما ترونه »

فقال الرجل الريفى فى بساطة :

– إنى لا أرى غيره .. أراه فى تفتح الزهرة وابتسامة الوليد وأراه فى الصواعق وأرى مشيئته فى حركة التاريخ ، وأرى يده فى قبضة الجاذبية التى تضم شمل الكون وتمسك بالمجرات وتحمل السموات بلا عمد .. وأراه أقرب إلىّ من نفسى بل أقرب إلىّ من نطقى ، وأراه فى العماء خلف كل شىء .. فى غيب الغيب .. لايوصف ولايحد .. سبحانه ليس كمثله شىء .

وحاول أن يبحث عن كلمات تقول أكثر وتفصح أكثر وتجسد أكثر .. كلمات يعبر بها الفجوة الهائلة بينه وبين محدثه ولكن لم يجد .

كانت الفجوة كبيرة .. فجوة بين حضارتين .

حضارة لا تؤمن إلا بما ترى وتلمس وتحس وتسمع .

حضارة مادية تبدأ من المادة وتنتهى إلى المادة وتشيد من المادة معجزات وخوارق واختراعات وسفن فضائية وقنابل وتصنع بها الدمار والعمار .

وحضاره أخرى تواقة حالمة منطبعة إلى الغيب تتصنت بالقلب والروح على مالايرى وما لايسمع .. وتعبر المادة أبدًا ودائما إلى ماوراءها .

وسكت الرجل الريفى ولم يجد كلاما يقوله ليعبر به الفجوة وأخذ يعيد ماقال وكأنما يخاطب نفسه .

– إنى لا أرى غيره .. لا أرى إلا الله . سبحانه لاسواه ..

قال الدكتور كرافت .

– إنى لا أملك إلا أن احترمك .. ولكنى لا أفهمك

وفى ذلك المساء فى الفراش كان الرجل الريفى يحدث زوجته وهو يخبط كف بكف

– أرأيت .. إنه لاتوجد [illegible] .. لقد انفرط كل شىء .. البنت تحمل سفاحًا ، والأخوة تفرقوا فى أركان الأرض ليواجه كل منهم مصيره بلا عون ولا سند ، والأب والأم منبوذان يعيشان وحيدين فى دار للمسنين ثم لم يبق إلا الكلب أقاموه صنما بديلا يبذلون له الود والحب والحنان والعبادة التى خلت منها الحياة .. ويحاولون ان يخلقوا به معنى والحكمة التى سلبوها كل

شيء .. إن كل ماتشاهدينه فى الفندق من تحيات ومجاملات وآداب مائدة وسلوك مهذب ولياقة .. كلها تعبيرات فارغة لا تدل على شيء ولا تحتوى على مضمون ... إنها مجرد حياة تلهث وراء متع لحظية .. ثم موت ثم تراب ثم عدم .. ثم لامعنى .. ولا حكمة .. وإنما عبث .

ولم يعجب زوجته الكلام وأعطته ظهرها .. وقالت كالعادة :

– لا تتعجل فى الحكم..ولا تستخرج حكما عامًا من لقاء عابر .. انظر حولك .. إنك فى عالم كعرائس الخيال أبهة ونظافة وأناقة وجمالاً وعلمًا وصناعة »

قال فى هدوء وقد أعطاها ظهره هو الآخر :

– كل هذا يمكن أن ينهدم فى لحظة .. حينما تنهدم القيم التى تمسك به .

كل هذا يصبح مثل النقش على الماء :

قالت فى مرارة .

– وهل عندنا فى مصر قيم .. هل عندنا أخلاق ؟

– صحيح لقد أصابت عدوى الانحلال الكثيرين فى بلادنا .. وصحيح عندنا فساد .. ولكن مازال عندنا أولو بقية من أهل الخير يعرفون الله و يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقومون الليل ويسبحون النهار .. وهؤلاء هم عمد الأرض وأركان الدنيا يحفظ الله الدنيا من أجلهم وبدونهم لايعود لها بقاء .

قالت وهى مازالت تنظر غربا وقد أعطته ظهرها .

– بل أركان الدنيا هنا .. ولكنك ترفض أن تراها .. وأعمدة الحياة حولك ولكنك تنكرها .. وناطحات السحاب تنطح السماء وتصنع الأقدار للألوف .. والعقول الألكترونية تدبر المصائر للملايين ، ومانسميه انحلال الأسرة هو روح الحرية .. والمغامرة .. ولكنك لاتريد أن ترى ولا تريد أن تغير من نفسك شيئا .

قال وهو مازال يعطيها ظهره وينظر شرقًا .

– نسيت أن صانع كل هذا العمار .. ترك نفسه خرابًا .. وأنه يوشك أن ينتحر وأن يقتل نفسه بما صنع .. وأن عمد الدنيا فى نظرك وأركان الأرض يوشكون أن ينقضوا على بعضهم البعض بالأسلحة الذرية والقنابل النووية .. وأنهم لوثوا من حولهم الفضاء والماء والهواء .. كما لوثوا عقولهم بالخمور والمخدرات ، ولوثوا أرواحهم بالكفر والجحود .. وأن ماترينه براقا حولك هو الغرور ومتاع الغرور .. وخيال اللحظة .. ونشوة اللمحة البارقة .. واقرئى التاريخ .. وانظرى خلفك .. بل تحت قدميك .. بل فى التراب تحتك .. حيث اندثرت أمم وأمبراطوريات .. وحيث انتهى عماليق طاولوا الشمس وخرقوا السماء .

ولكنها لم تنظر إلى وراء ، ولم تلتفت إلى التراب تحت قدميها

وإنما ظلت ناظرة مبهورة دائما إلى غرب .. على حين ظل هو شاخصا إلى الشرق .. إلى مطلع الأنوار .. وقد أعطى كل منهم ظهره للآخر .. وبينهما خيط رفيع .. رفيع .. هو عقد زواج .. يوشك أن ينقطع .

نهـر الكوثر

﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾

هذا خطاب من الله لنبيه محمد ﷺ ، وهو أيضا خطاب من خلاله لنا جميعا . والكوثر هي صيغة المبالغة التي هي فوق الكثير والأكثر فهناك الكثير ثم الأكثر ثم الكوثر وهي الغاية من الكثرة من العطايا والمنح والمواهب والنعم التي أفاضها الله على الإنسان الكامل والتي هي في الوقت ذاته امكانية باطنة في كل إنسان يستحقها وراثة عن الكامل إذا سار على قدمه .

والآية لها معان متعددة بالنظر إلى الكمال الجسدي والكمال النفسي والكمال الروحي الذي هو امكانية متاحة لكل إنسان إذا اجتهد في نواله . وإذا نظرنا إلى الجسد وإلى البناء المادي للإنسان ماذا نرى ؟ نرى خلق قد أعطى الانسان أكثر من سبعة أضعاف احتياجاته فهو قد أعطاه رئتين مع أن بإمكانه أن

يعيش بربع رئة واحدة وأعطاه كليتين مع أنه بإمكانه أن يعيش بأقل من ثلث كلية واحدة ، وأعطاه كبدًا ولو تليف سبعة أجزاء من ثمانية من هذا الكبد لاستطاع أن يعيش بالباقى .. أما الجلد فقد أودع الله فيه إمكانة التجدد إلى مالا نهاية .. أما الدم فقد أودع فيه إمكانة التجدد بمعدل ستين مليونًا من الخلايا فى الساعة .

وقد جاءتنا الأنباء الطبية أخيرا بأن الإنسان يستطيع أن يعيش بخمسة فى المائة من مادة مخه وهذا ما يحدث بالفعل فى الحالات التى تعيش من مرضى التمدد المائى لغرف الدماغ ، فأحيانًا يضغط هذا التمدد المائى على المخ فيتلف ٩٥٪ من مادته ولا يبقى للمريض إلا ٥٪ من مخه ، ومع ذلك يعيش المريض ويتفوق فى عمله ودراسته .. وتلك معجزة .

ويقول علماء النفس والأعصاب إننا نستخدم عشرة فى المائة فقط من إمكانات جهازنا العصبى .

والكلام خطير والسؤال الذى يترتب عليه . ماذا يمكن أن يصبح الإنسان لو أنه استخدم طاقات جهازه العصبى كلها إنه سوف يصبح عملاقا فى مواهبه وقدراته الفكرية والعصبية وهذا العمل هو مانرى جانبا منه فى بهلوان السيرك .. ومايستطيع أن يفعله بيديه ورجليه .. وأحيانًا بأسنانه التى يجر بها أتوبيسًا وهى كلها أمثلة على طاقات مادية كامنة أمكن تدريبها ، وفى عقولنا طاقات أخرى كامنة أخطر بكثير من هذه الطاقات التى دربها بهلوان السيرك .

وما نقرؤه عن وسطاء يستطيعون تحريك عقارب الساعة دون لمسها أو ثنى قضيب من الحديد بمجرد تركيز الإرادة عليه أو قراءة الخواطر على البعد وما نعلمه من غرائب التنويم المغنطيسى . وما بلغنا من كرمات أهل الشفافية والصلاح من الأولياء . كلها مجرد أمثلة أخرى لطاقات كامنة فى عقولنا ونفوسنا ، فلا غرابة إذا قيل لنا إن محمدًا ﷺ وهو الإنسان الكامل كانت لديه القدرة على الاتصال بالملاك جبريل ، وأنه كان يتلقى عن ربه وحيًا وأنه أسرى به جسدًا وروحًا إلى بيت المقدس وعرج به إلى السموات العُلى حتى بلغ سدرة المنتهى وأشرف على قاب قوسين من لقاء ربه . فذلك أمر لا يستغرب على من بلغ الغاية من الكمالات الذاتية فكان الرجل الأمين والصديق الوفى والمقاتل الشجاع والقاضى العادل ، والمتكلم البليغ والزوج المحب والأب الحنون والإنسان القدوة والقائد الحكيم والنبى صاحب الدعوة .. واثنى عليه ربه قائلا :

﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ .

فأى غرابة فى أن يكون هو النموذج والمثال وصاحب الكوثر بالفعل .

وبقدر نصيب المثال والنموذج وبقدر حظه يكون حظ كل منا

إذا اجتهد فى تكميل ذاته .. وكل منا وارث بقدر اجتهاده ..

ألم يقل لنا العلم الثابت إن الواحد منا يعيش بعشرة فى المائة من مواهبه وملكاته وأن تسعين فى المائة من هذه الملكات معطل أو كامن أو غير مكتشف .

لقد نقل الذى عنده علم من الكتاب عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين فى طرفة عين .. واستطاع سليمان أن يكلم النمل والطير وأن يستمع إلى تسبيح . الجبال ، وأوتى الطلسم الذى يحكم به مملكة الجن ويسخر به مردة الشياطين ، كما أوتى ذو القرنين الأسباب التى يفتح بها مشارق الأرض ومغاربها ، كما أعطى عيسى القدرة على إحياء الموتى وعلى شفاء العمى والبكم والصم .

وذلك بعض الكوثر وبعض الكامن من المواهب والاستعدادات فى الإنسان الكامل الذى خلقه الله فى أحسن تقويم ونفخ فيه من روحه فأصبح قابلا لما لا نهاية من الفيوضات الربانية ، وذلك كوثر الدنيا ، وهو غير كوثر الآخرة الذى قال عنه النبى ﷺ إنه .. حوض من شرب منه لا يظمأ بعد شربته أبدًا وهو حوض اختص به الله محمدًا وأمته وهو من الأسرار الغيبية مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر .. فهنيئًا لمن ورد ذلك الحوض .. وهنيئًا للقلة المسلمة المؤمنة بما وعدها الله ورسوله .

أما الكثرة الكثيرة التى قضت على نفسها بالحرمان بما أسدلت على عيونها من حجب البعد والغفلة وظلام الخطايا والذنوب وركام الكبرياء والشرك والكفر فإن الله لم يغلق أمامها باب المغفرة ولم يسد باب الرحمة وإنما فتح لها نوافذ التوبة على مصاريعها حتى غرغرة الموت .

ألا يحرك فينا هذا الكرم .. الحب الذى ليس كمثله حب لنشمر السواعد ونعمل ونجتهد ليكون لنا الحظ فى ميراث الكوثر .. بل البعض القليل من هذا الكوثر .. بل قطرة واحدة من نهر الكوثر .

وإن نهر الكوثر ليجرى فينا .. أقرب إلينا من حبل الوريد . وأنه ليس عنا بعيد .

الإسلام فتوة

هناك نوع من الناس لانفع فيه ولا ضرر منه .. نوع يمشى إلى جوار الحائط ولايشارك فى شىء .. نوع متواكل سلبى لا منتمٍ لامبالٍ وقد تعارفنا على أن نطلق على هذا النوع اسم «الرجل الطيب» لأنه يعيش فى حاله وقد كف عن الناس خيره وشره وطوى صدره على هومه وآثر ألا يزعج أحدًا .. وتصور البعض خطأ أن هذا الرجل هو نموذج المسلم المتدين الصالح .

وقد فهم هؤلاء الناس الاسلام فهمًا خاطئًا .. فالإسلام ليس ضعفًا بل فتوة وإيجابية .. الإسلام ليس خنوعًا وخضوعًا وسلبية بل موقفًا ومبادرة .. وإبراهيم النبى عليه السلام حطم الأصنام وواجه بطش النمرود ، وداود عليه السلام حارب جالوت وانتصر عليه ، وموسى عليه السلام واجه جبروت الفرعون وحده ، وقاد اليهود فى رحلة التيه فى سيناء ، ونوح عليه السلام صنع السفينة

وظل يدعو أراذل الكفار قرابة الألف عام ، تم استقل سفينته مع الصحبة القليلة المؤمنة وركب الطوفان ، ويوسف عليه السلام صارع الفتنة والغواية فى قصر العزيز ، وصبر على السجن كما صبر من قبل على غدر الإخوة وعلى عذاب الجب ، حتى جاءه الحكم والملك ، وعيسى عليه السلام قال لاتباعه : « ماجئت لألقى سلاما بل سيفًا ، ومحمد عليه الصلاة والسلام ختم النبوة بسيرة حافلة بالكفاح والمعارك والغزوات ، وكان يعبر لهيب الصحراء فى سبع ليال من الزحف إلى تبوك وقد جاوز الستين من العمر .

الدين ليس فيه هذا النوع السلبى من الطيبة .. وليس فيه الاستسلام والخنوع والخضوع والاستكانة والذل .. والذين امتدحوا هذه الصفات وظنوها تصوفًا أخطئوا فهم التصوف أيضا ، وانحرفوا به عن نقائه الإسلامى ، فالتصوف الذى لاينهض لمقاومة الظلم ليس له من الإسلام نصيب .

وإذا كان الاستعمار قد شجع فى الماضى بعض الطرق الصوفية التى تروج للسلبية والضعف والخضوع والاستكانة ، فإن الكثير من الصوفيين الأصلاء لم ينخدعوا ومن هؤلاء خرج جيش السنوسية يحارب الاستعمار الفرنسى فى الشمال الأفريقى وقد حمل المصحف فى يد والسيف فى اليد الأخرى .

ولا أعرف ماهو النموذج القرآنى لهذا النوع السلبى من

الطيبة .. لعله هابيل الذى رفض أن يدافع عن نفسه حينما بسط أخوه قابيل يده ليقتله فقال الأخ الطيب :

﴿ لئن بسطت إلىّ يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ﴾ (٢٨ .. المائدة)

فآثر أن يموت مظلوما على أن يدفع عن نفسه الظلم ، وترك القصاص لله .. وجعلها سنة للضعفاء من بعده .. ولكن هابيل لم يرد يده عن ضعف ، بل عن قوة وكان بإمكانه أن يبطش بأخيه ، وإنما اختار التنزيه فى اللحظة الفاصلة فنزه يده أن تريق دم أخيه وتلك ذروة فى القوة .. فعل ذلك خوفا من الله وليس خوفًا من أخيه ، وهو نفس المعنى المراد من كلام عيسى عليه السلام فى الإنجيل .. من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر .. فما أراد المسيح بكلامه أن يصبر المظلوم عن ضعف ، بل يصبر عن قوة ويعف عن قدرة .

وهو نفس مذهب غاندى « الاهمسا » أى عدم رد الأذى بمثله .

وقد انتصر غاندى على الإنجليز بهذا المذهب وأخرجهم من الهند .. لأن مفهوم المذهب كان القوة والقدرة وليس الاستكانة والذل .

﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ﴾ هم الأقوياء وليسوا الضعفاء والحديث يوضح هذا المعنى فيقول : « المؤمن

القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » فهو لم يحرم الضعفاء نصيبهم من الخير ولكنه قال إن المؤمن القوى أحب إلى الله .

والقوة مطلوبة ولاشك فى هذا العصر المادى الذرى الذى أوشك أن يتصارع فيه العماليق .. والضعف سوف يكون مهلكا قاضيًا على أصحابه .

وفى مواجهة الصلف الاسرائيلى ومظاهرات القوة التى تباشرها إسرائيل فى البر والبحر والجو .. لا يصح للعرب أن يقفوا هذا الموقف الضعيف المفكك المتهالك .. وإنما لابد من وحدة وإعداد واستعداد ، وجمع للشمل وشحذ للهمم وتشمير للسواعد ورفع للقدرات العسكرية للذروة .

إن مفهوم « الرجل الطيب » بمعنى الرجل الذليل المستكين ، يجب أن يشطب من القاموس العربى ، ومن القاموس الدينى تماما ، فهو ليس مفهومًا دينيا وليس مفهومًا إسلاميًا ، بل هو مفهوم استعمارى غسلوا به مخنا وروجوه بيننا خلال سنوات الاستعباد والاحتلال .. وهو اختيار الكسالى والجبناء والضعفاء ..

وعلينا أن نفيق على فجر جديد ومفهوم جديد يلائم العصر الجديد والجاهلية الجديدة ذات المخالب والأنياب .

وفى عصر الذئاب لايمكن أن نكون دجاجًا وحملانا ، والغد الذى نسير إليه سوف يكون غدًا مخيفًا .. غدًا لا إختيار فيه :

إما أن يكون الواحد منا آكلا أو يكون مأكولا . ولا طريق ثالث .

إنهم فى إسرائيل يردون على اللطمة بقنبلة ناسفة ، وإذا أصاب رصاص القناصة فردًا واحدًا منهم قاموا بتمشيط الجبل كله ونسفوا المنازل وهدموا البيوت وسووها بالبولدوزرات . لم يعد قانونهم السن بالسن والعين بالعين كما تقول التوراة .. ولكن السن بطقم الأسنان كله . والعين بألف عين .. والرأس بأمة ، ويسمون ذلك استراتيجية الردع . وهم ولاشك تعلموها من النازية . وفى مواجهة هذه الاستراتيجية لاتصلح فلسفة « الرجل الطيب » ولا إدارة الخد الأيسر بعد الأيمن .

ولم يردع بغى النازية إلا بغى أشد منه ، ولن يصلح للبأس الشديد إلا بأس أشد منه ، ولست أدق طبول الحرب ولا استنفر لقتال .. فالوقت غير مناسب والرياح السياسية غير مواتية ، والعرب اشتاتاً لانفير لهم ولا عزم ولاكلمة . وإنما أقول .. اجتمعوا وتشاوروا واستعدوا واحتشدوا ، اخلعوا عباءة الرجل الطيب ، انفضوا عنكم المسكنة .

ولأن يأتيكم الموت فى كرامة أفضل من أن تكرهوا عليه فى مذلة ، وأن الموت لآت ياسادة شئتم أم أبيتم . واذكروا لى اسم رجل واحد هرب من الموت منذ آدم .

فهرس

صفحة

صفحة